ثلاث زنبقات ووردة

المشروع القومي للترجمة

قصص

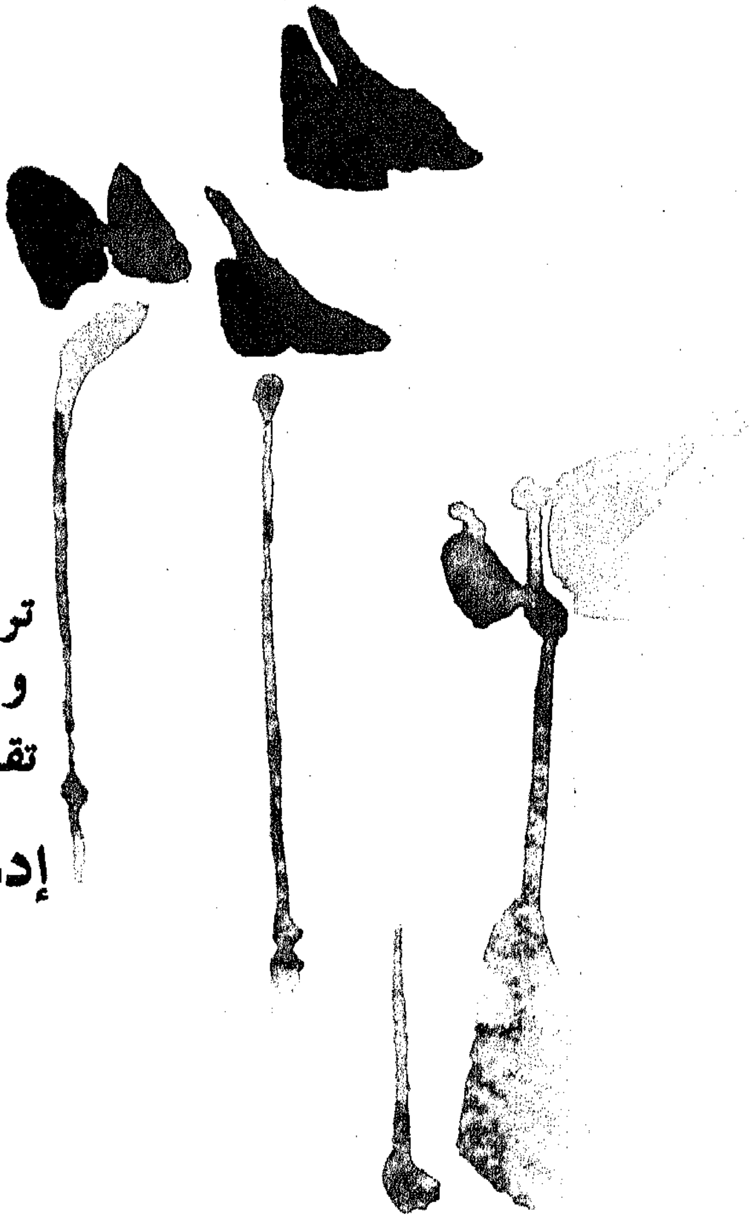

ترجمة
و
تقديم

إدوار الخراط

Bibliotheca Alexandrina
0173377

96

اهداءات ٢٠٠١

لمهندس/ محمد عبد السلام العمرى

الإسكندرية

المشروع القومى للترجمة

ثلاث زنبقات ووردة

قصص مختارة

ترجمة وتقديم

إدوار الخراط

المجلس الأعلى للثقافة

١٩٩٩

Short Stories

Selected, translated and introduced

by

Edwar Al-Kharrat

فهرس

ثلاث زنبقات ووردة	مولك راج أناند	6
أوسان	دازای أوسامو	18
الطلسم	محمد ديب	40
أوه .. أوه .. أوه	ايدروس	59
الأرض والدم	مولود فرعون	68
الغيلان السبعة	مرجريت طاووس عمروش	86
الغيطان عند الحصاد	محمود ماكال	104
الأطفال والعجائز	إيفان شانكار	117
موت بالع السيوف	الكسندرو ساهيا	122
الحساب	فلاهوتسا	130
الأم	تيودور أرجيزى	136
الغـــوغـاء	مكسيم جوركى	141
الكلب	» »	145
فى المنفى	أنطون تشيكوف	149

مولك راج أناند

قرأت رواية « كولى » لمولك راج أناند فى مطلع الصبا ، فى ١٩٤٢ أو ١٩٤٣ ، فى طبعةٍ رخيصة من دار نشر بنجوين الشهيرة التى كانت فى بكور عملها حينذاك ، سحرنى منه - ومازال يسحرنى - هذا العمل الدقيق البصير فى تصوير تلك النماذج الانسانية المسحوقة تحت وطأة الفقر ، والكدح ، والمناضِلة مع ذلك بدأبٍ لا يهن من أجل البقاء ، والكرامة . أكان فى هذا التصوير مايوحى لى بمشهد اجتماعيٍ كنت أعرفه حق المعرفة فى اسكندريّتى - إبّان الحرب العالمية - وفى أسرتى الكبيرة والصغيرة سواء ؟

عرفت الكاتب الرجل بعد ذلك سنوات ، فى غضون عملى باتحاد الكتاب الأفريقيين الآسيويين ، عندما ألمت بالهند مرارا ، ولمست الدماثة والرقة وسعة المعرفة وسعة الأفق معا ، كان عندئذ يصدر مجلة شهرية فنية فى بومباى التى كان يقيم بها ، ويرأس الأكاديمية الهندية للفنون الجميلة ، ويعمل بالنقد التشكيلى - فهو جدّ مولع بالفنون « الجميلة » (أى الفن التشكيلى على إطلاقه) . إنه الآن ، فى ظنى ، قد تجاوز الثمانين بكثير ولعله شارف التسعين من عمره ، يظل حيا وشابا ونضرا فى وجدانى وربما عندما تقرأونه فى وجدانكم أيضا .

ثلاث زنبقات ووردة

مولك راج أناند

كان أطفالها الذين ماتوا جميعا قد بعثوا كحلقات من المر تصعد فى فمها . وقد أمسكت بطفلها الميت بين يديها، بينما عكف حفار القبور على الأرض يفتح فيها حفرة ، فى فناء البيت الخلفى ، لكى يدفنه .

كانت تغص بموجات من الحنان تنبثق من عيون صغارها ، عيونهم الكبيرة الواسعة ، وكانت لحظات الانتظار الطويلة ، حتى تنضج بطنها وتدفع الطفل الجديد من رحمها ، تبتعث فيها المخاوف من المستقبل . وكانت ممزقة ، حتى لقد كان فى وسعها أن تبكى . كانت الصدمة ، على أثر رحيل « نيلا » الصغير ، قد جمدت قلبها .

وقف « آشورا » زوجها ، وراء ها ، طويل القامة ، لا ينحنى ، كأنه شجرة فى مقدورها أن تثبت للعاصفة . ومد يده اليمنى يمسك بها ، إذ كانت توشك أن تنثنى على نفسها ، وهى تميل تحت ثقل القربان الذى تهبه إله الموت بين ذراعيها الممدودتين .

وهمس :

– عائشة .. !

لم تلتفت نحوه ، لم تلتفت نحوه ، كأنما أطراف أعصابها مشدودة ، مشاعرها تنبثق كأنها التحدى من أعدائه ، ضد العالم ، وضده . لو أنه

تراجع عن الكفاح فى سبيل السلطة والحكم ، وكل ما يترتب عليها ، ما كان « نيلا » قد ذبل عوده . كانت ترى قسمات وجهه ، فى بعض الأحيان ، قد شاهت وحالت عندما كان الغضب من أعدائه يصبغها بلون البنفسج الحاد ، وتتمدد العينان ، إذ يتكلم ، والشفتان الملهمتان بالشهوانية والحسية ، دافئتين فى القبل ، قد أصبحتا مزمومتين مضغوطتين فى جهامة وعبوس ، من مرارة الهزيمة . لو أنها استطاعت أن تذيقه ، كل يوم ، طعم الخبز الجاف ، وأن تعود به إلى هذه الحديقة ، عند اشتعال المعارك ، بأفواهها الفاغرة ، مع البيض .. ! ولكن أفكارا أكبر من رأسه الطويل كانت تستأثر به . فقد كان البيض يملكون قوى الشياطين التى تنفجر كلفحات الرعد من الآفاق المدوية وتنطلق من أفواه المدافع الرشاشة القريبة . وكانت هى تقف بينهما ، أماً لأطفال ثلاثة قد ماتوا ، وللطفل الجديد الذى لم يولد بعد .

أقبلت المرأتان اللتان تخدمان فى البيت ، والبستانى ، يدفعونها إلى الخلف ، من كل ناحية ، بأيد وأرجل ثقيلة . وأحست « عائشة » كأن صقورا تنهش لحمها قبل أن تنتزع من ذراعيها جسم طفلها . وكان فى عظامها الخوف من طيور البحر الصارخة الضاربة بأجنحتها ، بصيحاتها الثاقبة ، منذ أن كانت تذهب تستقى الماء من على ضفاف النهر الذى يجرى على مقربة من قريتها . فدفعت أصحاب الجنازة عنها ، برفق ، كما كانت تهش الطيور من فوق رأسها وهى تلوح بذراعها ، بينما هى تدعو الآلهة أن تُسكن الهدوء فى قلبها الضارب بخبطات نبضه ،

وأن تخلصه من المخاوف . كانت هاتان المرأتان تعملان في بيت غريب عنهما ، وتركعان في ظلام المساء أمام الصليب ، وتسترجعان الذكريات مما قبل التاريخ تستعينان بها في أداء أعمالهما ، وكانت موسيقى صلواتهما حزينة ، وقد بكيتا لمرأى الطفل يُصعّد آخر أنفاسه ، كقيثارتين سوداوين بأوتار مكسورة .

كان البستاني الذى استحال حفار قبور ينفث أنفاسه .

وقال بصوت هادىء :

- لم يعد فيَّ نفَس ، هذه الأيام .

كأن شيئا لم يحدث للعالم .

ولما لم يجبه أحد ، مد جسمه وتمطى ، ومسح العرق من وجهه ، ونظر بعينين غائمتين إلى قامات أصحاب الجنازة ، أمامه ، وقال :

- كنت أقوى عودا عندما حفرت قبرا لكلبي « البولدوج » الذى كان عند مدام « بلوم » امرأة الحاكم ...

كان في صوته نبرة من الزهو الذليل إذ يستعيد ذكرى خدمته لشخصية لها من المكانة ما للرئيس الأبيض الكبير .

همس « أشورا » :

- احفر إلى أعمق قليلا . أسرع ... زادت حدة الشمس ...

ثم سكت ، كأنما ليسيطر على حنقه من « راها » البستاني . ولكنه

استطرد :

– ليس هذا الطفل كلبا . كان جوهرتنا .

فقال « راها » ليؤكد ولاءه « لآشورا » :

– هذا البولدوج الذى كان عند مدام « بلوم » كان مثل تشرشل .. !

سمعت « عائشة » الحديث ، وأدركت ، بغرائزها ، دلالة الكلمات ، كان لون الطمى الأسود هو ابنها ، كأنما انبثق ، مثل نبتة ، من التربة بجانب النهر . إلا أن سمّ مرض السل البطىء المحرق قد أدركه من مكان ما فى الهواء المتعفن ، بينما كان أشورا فى السجن . وعندئذ بهت لون الجوهرة ، وراح يذوى ويجف مثل غرسة غضة من غير ماء . هل كان يمكنه أن ينقذه طبيب القرية لو أنها عادت إلى قريتها ؟ كانت تلك الأعشاب قد أتاحت لها أن تقوى على الحياة حينما راحت تغيض قواها ويذبل عودها ، بعد أن ضحكت من قصة بذيئة مرحة كانت عمتها تحكيها ، فأجهض ذلك أول أحلامها ... كانت تحوم فوق رؤوس الناس ملائكة الموت ، الطائرات تسد عليهم السبل التى كان بوسعهم أن يفروا عن طريقها ، من هذه البلدة ، إلى الغابات . وأحيط بهم الآن ، كالأسرى ،على أيدى قومهم أنفسهم الذين اشتراهم ملك البيض ، كأنهم من الماشية التى توضع طعما لصيد الأسود . إن حب المال والثروة الذى يكنّه أمثال تشومبى فى هذا العالم ، قد أفسد كل نعمة ، ودفع أشورا إلى الجنون حتى لجأ إلى المخدرات . كانت السلطة والقوة قد سمّمت كل عُرْى الحياة ، إذ كان كل رجل ، وكل جندى ، يجرى وراء الفئات الذى

تخلف عن الولائم الكبيرة ، وطُوح به عنها . وأرادت أن تقول لزوجها المزهو بالاعتداد بنفسه : « أوه .. لماذا لم تتخذ من الفقر مثلا أعلى تعلنه على الملأ ؟ ألم تستسلم أنت نفسك للمتع ولذائذ الحياة الرخية بينما كان ينبغي أن تكون أخلص الناس وأعظمهم فداء ؟ ألم تحدس أن أذهان القتلة تغتذى بالغنائم المنهوبة السليبة ؟ الموت ، كل الموت ، يواجه شعبنا ، ألم يلهمك بالخوف فيبعدك عن إشباع رغبات أنت فى غنى عن إشباعها ؟ وأنت الآن تقف تستدعي الأسى من عناصر الطبيعة ، لأن ثمة حياة ماتت قبل أن تبدأ ؟ وشد ما كنت مشغوفا بالطهر والنقاء - لقد دعوت هذا الطفل باسم محرر الهند ! »

كانت المرأتان قد ابتعدتا عنها عندما دفعتهما بعيدا ، فأقبلتا من جديد وأمسكتا بها مسكة حازمة ، كأنهما كانتا تحدسان فقاعات الفكر المتعفنة التى تشع على وجهها الدمث الوادع المستكين . كانت رائحة ثيابهما التى نال منها عرق الصباح الحار ، تلذع حواسها . ومع ذلك فلم تنحهما عنها ، وهى تقف على حافة الهوة التى سوف يكون عليها أن تقذف فيها بابنها الميت ، وأحست ، على قاعدة جبل بطنها ، حركة الساقين الصغيرتين ترفسان البقعة التى سوف تكون منها بداية جديدة .

كانت تهتف ، فى دخيلة روحها : « ياالساعات الطفولة ! » وهى تستعيد ذكريات اللحظات التى كانت تجرى فيها ، وتتسلق الأشجار ، وتقفز وتتواثب فى مشيتها من مجرد قوة الوجود ، تدفعها عصارة الثمرة المتفجرة فى داخلها . وتذكرت كيف أعجلت نفسها حتى تنمو

وتكبر ، ورفضت أن تنتظر حتى تحبها الأقمار المتوهجة التى كانت أشعتها تخترق اهابها فى الساحات بين غابات الشجيرات حيث كانت تلعب . من ذا الذى يستطيع أن يفهم نواة المحبة الصلبة الراقدة فى قلب بنت صغيرة ، مع دفعات الرغبة العارمة ، يكبحها خجل الورود ؟ من ذا الذى يستطيع أن يدرك الأسى الغلاب لانقضاء كل ما كانت تعزه وتحبه ، للجنازات الصامتة ، ودفن المشاعر على أيدى من يمقتونها ؟ كانت تريد أن تنطلق ، بحركة عنيفة مدمرة ، تنزع عنها قبضة المرأتين . كانت تريد أن تثب إلى السماء ، تتحدى الآلهة الذين سلبوها حَدَثها النقى ، كانت تريد أن تهجم على كل الحيطان ، والبيوت ، والأشجار ، بانفعال الأم واندفاعها ، لكى تنقذ البذرة التى تبزغ فى داخلها - فقد كان الأعداء يحيطون بها من كل جانب .

قال « راها » حفار القبور وهو يستقيم من وقفته المنثنية :

- صبرا يا أمى ، صبرا الآن ، لحظة واحدة ، وسوف أمهد سريرا صغيرا لطيفا للولد البرىء المسكين ..

فقال « أشورا » بصوت مهدد نافد الصبر :

- كل ضربات الفأس العشواء لم تمهد قاع القبر .

ثم استطرد وقد اتخذ مظهر الهدوء والحزم :

- لا أريد حججا ومعاذير .. مهِّدْ القاع .

- يا مولاى لقد تركت جانبا من الأرض مرتفعا حتى أصنع منه

وسادة للرأس الصغير .. سوف أرفع بالجاروف بعض الأحجار ، ثم ..

كانت كلمات حفار القبور قد مهدت الجو إلى حد ما ، إذ كانت تنم عما بذل من عناية لتوفير الراحة للصغير .

وأحست « عائشة » إحساس الأم ، ، لأن « راها » ناداها بهذا الاسم . ومن فوق سحب الحزن والكآبة التى كانت تحوم على شعرها الأسود الجعد ، ومن وراء القلق والتوفز ، والبروز غير السوى فى بطنها ، كانت تريد أن تبتسم لهذا العطف الذى أحسته فى صوت البستانى . ولكن الذوات الغامضة المبهمة للناس الذين يحيطون بها قد تسىء فهم سطوع الشمس على وجهها . فاستدارت لكى تنظر إلى زوجها الحازم الهادىء ، لكن ترى ما إذا كانت كلمات حفار القبور قد انتزعت منه قليلاً من الرحمة . كان « آشورا » مازال يحتفظ بالمظهر الشكلى التقليدى لمن أصابتهم فجيعة . ودار فى جوانب بطنها ألم لا اسم له ، مازال صغيرا بعد ، وارتفع فى دوامات متصاعدة وبعث فيها الحزن المألوف الذى يتأتى عن العذاب الطويل ، والكآبة الناعمة التى تصحب قبول أوجه قصورٍ لاعداد لها ، فى هذا الرجل .

وأعطاها « آشورا » ابتسامة زائفة ، وانفتحت شفتاه لكى يبعث فيها الثقة ، على أنه لم يكن يستطيع أن يعبر عما يشعر .

واتجهت كل مشاعرها النامية إليه الآن ، فى انسياب متدفق ، كأنما تنطلق من أغوار أحشائها ، حيث تحمل له طفلا جديدا ، وأحست عطفا غريبا نحو رجولته الصلفة المتكبرة ، ونوعا من الضعف قد يجعله أقوى ،

فى وقفته الثابتة القائمة التى يحارب بها ، من أجل الأراضى الشاسعة . لعل شيئا من التناسق والانسجام قد يسود فى الأرض ، بعد أن يتحول وجهها ، وبعد أن يمضى عنها الغرباء .. ثم ألم تكن رغبتها فى الاستحواذ عليه هى التى حملتها على الحنق من غيابه الطويل ، من تعاظمه وادعائه الذى يشبه ما يفعل الأطفال ، ومن تلك الدرع المثبتة حوله فى بنيان دفاعىّ أقامه حول جسمه ، كذلك الذى كان يقيمه الرؤساء المقاتلون القدامى فى أفريقيا ، للحفاظ على أنفسهم من أعدائهم . إلا أن القناع أوشك أن ينتمى إلى وجهه ، قناع الصلابة . هل يكون الأمر أنه يقوى من إرادته ضد ضعف الماضى ، باكتساب مظهر الشجاعة ؟ كانت « نونى » الخادم العجوز التى كانت تمسك بها الآن من اليسار ، قد قالت إن نساء الشرق يتحدثن عن الامتناع على الرجال ، حتى يأتى الوقت الذى يكسبون فيه الحرية من الأجانب ، لأنهم لا يقبلن أن يلدن عبيدا بعد . وكانت قد ردت على « نونى » :

– إن « آشورا » لم يتخاذل فى المعركة . إنه على الأقل مازال يكافح ...

قال « راها » وهو يرفع بصره :

– هيا الآن يا أمى .. اعطنى الطفل وسوف أغنى له حتى ينام هناك ، فى حجر جدتنا الأرض ...

وهونت كلمات البستانى ، بما فيها من ملاطفة ، على عائشة ، وأراحت قلبها . فكادت تبتسم . ولكنها لم تقو على أن تسلم الجثمان ، كان فى ذلك العمل أكثر مما تطيق .

وصرخت :

– آه .. يا طفلى الحبيب .. آه ...

ثم قالت ، وقد انبثقت فى إرادتها دفعة جديدة من العزم :

– يا ملاكى .. خذه ، دعه ينام على مهل ، على مهل .. هناك ...
وكتمت شهقة من البكاء ، وكادت تغص من كتمان صرختها .

وقف « آشورا » مغلقا عليه فى سجن غموضه وعتمته ، حتى مالت روحه التى تختلط فيها العتمة بالنور نحو عائشة ، ومس رأسها ، كأنما يباركها .

وصدر حفيف عن ثوبها الحريرى ، فوق ثدييها الفتيين المشدودين ، فانتشر عنه لبن الهدوء عبر جسدها ، إذ كانت تنحنى إلى الأمام لكى تنظر إلى الجثمان الصغير قبل أن يهيل « راها » التراب فى القبر .

وانطوت يداها ، بحركة غريزية ، فوق بطنها ، كأنما تأتى ذلك عن جهد ملهم لكى تقى النماء الجديد هناك ، تحميه من السقوط فى الهوة ، الفاغرة أمامها . وتراجعت ، تهدىء من قلبها الذى انطلق نبضه يعدو ويجرى ، بينما غامت عيناها .

ومن خلال ضباب دموعها الغامض المنبهم ، كان بوسعها أن ترى الأرض .

ووضع البستانى ثلاث زنبقات سوداء ووردة كان يحتفظ بها ، فوق القبر وقال :

- الزنبقات السوداء للثلاثة الذين فقدتهم ، والوردة للجديد الذى سوف يزدهر يا أمى . تشجعى ... سوف يكون هناك الكثير من الحياة بعد ...

وأحست ، وهى تهتز على كفّتى توازنها القلق المرتعش ، بضغط يد « آشورا » الهادئة القوية .

وقالت « نونى » :

- اذهبى معه .

دازاى أوسامو

ولد دازاى أوسـامـو ، كـاتب هذه القصـة ، فى ١٩٠٩ وكـان أبوه من ملاك الأرض الأغنياء فى شمال اليابان . وكانت حياته صـورة للبوهيمية اليائسـة ، انغمس فى نوبات السكر ، وإدمـان المخـدرات ، والاشـتـغـال بالسياسـة المتطرفة ، وحاول الانتحار عدة مرات . وفى يونيو ١٩٤٨ مات غرقا ، مـع حـبيبتـه ، فقد نجح أخيرا فى مـحـاولات الانتحـار إذن ، فيما يبدو .

وقد جعل حياته الجامحة موضوعا لكتابته ، بل بلغ من تشابك حياته وفنه أن أصـبح أوسـامـو بعـد الحـرب رمـزا ، وبطلا وجـوديا عند شـبـاب اليابان . وعرفت مدرسته فى اليابان باسم روايته « الشمس الغاربة » .

وعلى الرغم من أن كـتـابـتـه تكاد تشـفـى على خَطَر الرثاء للنفس والشفقة عليها ، فإن روح السخرية تنقذها من هوة العاطفية كما تنقذها المقدرة على نقد النفس والبصر بغيوبها وسخافاتها .

وقد نشـرت قصـة « أوسـان » فى أكتوبر ١٩٤٧ أى قبل انتحاره بأقل من سنة . وتستمد موضوعها من مأساة قديمة تعود إلى القرن السابع عشر . وبطلة هذه المسرحية القديمة هى أوسان الزوجة الوفية الفاضلة المضحية بنفسـها التى تقوم بواجبها مهما كلفها ذلك . وينتحر زوجها ، فى نهاية المسرحية ، مع عشيقته .

وقد بنى المؤلف قصته على أساس هيكل المسرحية القديمة ، بعد أن صاغ لها النسيج المعاصر المرتبط بأحداث العصر وروحه .

أوسان

دازاى أوسامو

كان قد ترك البيت ، كمن فارقته الروح . حتى لم يكن لخطواته وقع أو صدى حينما كان يمضى ، كنت أغسل الأطباق فى المطبخ ، بعد العشاء ، وأحسست بذهابه من ورائى ، وفجأة خامرتنى الرغبة فى أن أسقط الأطباق من يدى . وتنهدت بالرغم منى ، وانحنيت إلى الأمام قليلا ، ونظرت من النافذة . وفى الممشى ، من وراء تعريشة اليقطين الملتوية ، كان يطفو فى عتمة مساء الصيف ظهر الكيمونو الأبيض الموحش ، يلتف به وشاح ضيق ، يعلو وينخفض ويتمايل ، يكاد يشبه الشبح ولايمت بصلة إلى شىء من هذه الأرض .

سألتنى كبرى بناتنا وكانت فى السابعة من عمرها بلهجة بريئة :

– أين يذهب أبى ؟

كانت تلعب فى الحديقة ، وكانت تغسل قدميها فى دلو من دلاء المطبخ . كانت تؤثر أباها علىّ . وفى الليل كانت تبسط لحافها فى الغرفة ذات الحصر الست ،

– يذهب للمعبد .

أجبتها بأول ماخطر لى على بال . وقد قلتها أحسست بالبرد فجأة ، إذ مر بخاطرى على نحو ما ، أن فى كلماتى نذير سوء .

– لماذا ؟

– اليوم عيد « أتوبون » ألا تتذكرين ؟ ولذلك فإن أباك يزور الجبانة .

كانت الأكاذيب تأتى تترى . والواقع أن اليوم كان الثالث عشر من يوليو . أول أيام عيد الموتى . كانت الفتيات الصغيرات الأخريات كلهن يرتدين الكيمونو الأنيق . ويلعبن على عتبات البيوت وأكمامهن الطويلة تهفهف بكبرياء .

أما أولادى فقد ضاعت عليهم كل ثيابهم الجديدة فى أثناء الغارات الجوية ، وفى يوم « الأوبون » كانوا يرتدون تلك الثياب الأجنبية الرثة نفسها التى كانوا يلبسونها كل يوم .

– أوه ؟ هل تظنين أنه يعود مبكرا ؟

– ربما . إذا ظلت « ماساكو » بنتنا حلوة مؤدبة ، فسوف يعود مبكرا .

على أن طريقته فى الخروج كانت توحى بأنه سيقضى الليلة كلها فى خارج البيت ، مرة أخرى .

جاءت « ماسكو » من المطبخ ، وذهبت إلى الغرفة ذات الحصر الثلاث ، حيث جلست إلى النافذة ، وراحت تنظر إلى الخارج ، بجهامة واكتئاب .

قالت بصوت خفيض :

– أمى ، عود الفول الذى زرعته ، طلع فيه الزهر .

– أين ؟ أين ؟

أحسست بالدموع تصعد إلى عينى ، وأكملت :

– نعم ، صحيح . تصورى مقدار الفول الذى سنجمعه منه .

كان إلى جانب الباب الأمامى رقعة من الأرض فى نحو عشرين ياردة مربعة اتخذنا منها حديقة وكنت أزرع فيها الخضر ذات يوم ، ولكننى بعد أن جاءنى ثلاثة أولاد لم يكن يخطر لى على بال أن أزرع شيئا ، أما زوجى الذى كان يساعدنى بين الحين والآخر فلم يكن يلقى الآن بأى اهتمام للبيت . كان جارنا يرعى حديقته وكان له محصول مرموق من الخضر ، أما حديقتنا فقد كانت شيئا مخزيا بجانبها ، ولم يكن يترعرع فيها إلا الاعشاب . كانت « ماسكو » قد أخذت حبة فول من التموين وزرعتها وسقتها ، وعندما بسقت نبتتها كانت مثار فخارها الوحيد . فلم يكن عندها لعب . عود الفول الذى زرعته ، كانت لاتفتأ تفاخر به ، دون تواضع – عندما تذهب للجيران .

الخراب .. لا ، لسنا وحدنا . كل الناس فى اليابان ، كل الناس بخاصة فى طوكيو وقد غاضت منهم الحياة ولحق بهم الخراب ، يتحركون فى توان وبطء ، كأنما مجرد الحركة تقتضيهم الجهد الفادح . كنا ، نحن أيضا ، فقدنا كل شىء فى الغارات ، وكنا نرى الخراب

حيثما وقعت أبصارنا ، ولكن كان هناك شيء أفدح وأمرّ . كان على أن أحمل أبهظ عبء يمكن للزوجة أن تحمله .

كان زوجي من محرري مجلة على جانب من الشهرة في « كاندا » منذ نحو عشر سنوات . وقد تزوجنا منذ ثماني سنوات ، وكان زواجا عاديا جدا ، عن غير حب . ولما كانت أزمة المساكن مستحكمة في طوكيو ، فقد عثرنا بعد لأى على هذا البيت الصغير في الضواحي الغربية ، وكان أشبه بكوخ ريفي مستوحد بين مزارع الأرز ، وأقمنا فيه حتى نشبت الحرب .

ولما كان زوجي معتل الصحة فقد أفلت من الخدمة العسكرية ومن العمل الاجباري على السواء ، وواصل عمله بالمجلة كل يوم . وكانت في الضاحية التي تقيم فيها مصانع للطائرات ونحوها ولذلك كانت القنابل تسقط قريبا منا ، بأعداد كبيرة . وفي آخر الأمر ، سقطت قنبلة ذات ليلة في غابة البوص خلف البيت ، وأحالت المطبخ ، والحمام ، والغرفة ذات الحصر الثلاث إلى حطام وكان من المستحيل علينا نحن الأربعة – كان ولدنا « يوشيتارو » قد ولد في ذلك الوقت – أن نعيش في بيت استحال نصفه إلى أنقاض .. ولذلك أخذت الولد والبنت ، وذهبت إلى بيت أهلي في آموري ، إلى الشمال ، وبقي زوجي في الغرفة ذات الحصر الست ، واستمر يعمل في المجلة كالمعتاد .

لم تكن قد مرت علينا شهور أربعة في آموري عندما دمرت الغارات البلد . وضاع منا الأثاث والمتاع الذي نقلناه إلى آموري ، وذهبنا إلى

بيت أحد الأصدقاء فى آمورى وكان هذا البيت قد نجا من الحرائق ، وليس لدينا إلا الملابس التى تكسونا ، حرفيا ، ولا شىء غيرها . وبعد عشرة أيام كأنها الجحيم ، جاءتنا أنباء التسليم ، وكان الحنين قد أمضّنى إلى طوكيو حيث كان يعيش زوجى ، فخرجت مع طفلى ، واستطعت أخيرا أن أعود وقد رث مظهرى وتخلقت ملابسى ، كالشحاذين ، وكلفنا نجاراً أن يقوم ببعض الترميمات الأولية فى البيت ، فلم يكن لدينا من مأوى غيره ، واستطعنا ، بطريقة ما ، أن نستأنف حياتنا القديمة الحميمة فيه ، أبوين وطفلين .

وعندئذ ، إذ كنا نبدأ فى الاستقرار فى بيتنا ، حل التغيير بزوجى .

وكانت دار المجلة قد احترقت ، ونشب النزاع بين مديرها بشأن بعض المسائل المالية وانحلت الشركة ومن ثم تعطل زوجى . إلا أنه كان يعرف الكثيرين ، فقد كان له فى هذا العمل زمان طويل . واتفق مع اثنين أو ثلاثة ممن رآهم جديرين بالاعتماد عليهم ، وأنشأوا شركة جديدة برأسمالهم المشترك ، ويبدو أنهم أصدروا كتابين أو ثلاثة . إلا أنهم سرعان ماتعثروا فى عمليات شراء الورق . وكانت الخسائر فادحة وغرق زوجى فى الدين . كان يخرج من البيت فى الصباح هائما على وجهه ، ليشتغل فى شئون تصفية الشركة ، ويعود بالليل منهكا مستنفد القوى . واستطاع بطريقة ما أن يعوض الخسائر ، وبدا أنه لم يعد يملك المقدرة بعد ذلك على عمل شىء . إلا أنه لم يكن يبقى فى البيت طول النهار . كان يقف فى الشرفة ، يفكر ، وينظر إلى الأفق دون كلل ،

وكنت أعرف عندئذ أن الأمر قد بدأ من جديد .. كان يصعّد تنهدة عميقة ، كأنما أفكاره أفدح من أن تحتمل ، ثم ينفض سيجارته التى لم يدخن إلا نصفها فيطوح بها فى الحديقة ، ويتناول محفظته من درج المكتب ، فيدفع بها إلى جيب الكيمونو ، وبخطى لا وقع لها ولا صدى كمن فارقته الروح ، يخرج من الباب الأمامى ولا يرجع إلى البيت ليلتها فى العادة .

كان زواجا طيبا . وزوجا حنونا رقيقا . لعله كان يشرب نصف قدح من « الساكى » أو زجاجة من البيرة على الأكثر . ورغم أنه كان مدخنا فقد كان يكفيه نصيبه من تموين السجائر . وفى خلال عشرة أعوام من زواجنا لم يضربنى قط ولم يسىء إلى بالقول الجارح . صحيح أنه كانت هناك تلك المرة ، عندما كانت ماساكو فى نحو عامين من عمرها ، دخلت البيت تزحف واصطدمت بقدح الشاى الذى كان أمام ضيفنا ، فأوقعته وعندما نادى ولم أجبه - كنت خلف البيت أشعل النار - فى تلك المرة وحدها ، جاء إلى المطبخ وعلى وجهه عبوسٌ مقطب رهيب . وأسقط ماساكو إلى الأرض ، ووقف برهة يحدق إلى وفى عينيه مايشبه نية القتل . ثم استدار وخرج من الغرفة ، وصفق الباب بخبطة رنّ صداها فى نخاع عظامى ، وجعلتنى أعرف إلى أى مدى يمكن للرجال أن يكونوا مخيفين .

كانت تلك هى المرة الوحيدة ، حرفيا ، حينما استشاط غضبه علىّ ، ومع أننى عانيت الكثير خلال الحرب ، ككل الناس ، إلا أننى أحب أن أقول - عندما أفكر فى رقته - أننى كنت سعيدة فى أثناء هذه الأعوام الثمانية .

(أصبح شخصا آخر . بدأ يتغير ؟ .. عندما عدت من آمورى ورأيت سلوكه المسترق الخفى ، وإعراضه عن أن ينظر فى عينى مباشرة ، استخلصت أن الجهد الذى بذله فى أن يعيش وحده قد أنهكه استنفد قواه . ومسنى ذلك . ولكن لعله فى تلك الشهور الأربعة - لا ، لن أفكر فيها . كلما أمعنت الفكر غاصت أقدامى إلى أعماق أكثر غورا فى الرمال المتحركة) .

لم يكن من السهل على أن أضع وسادة ماسكو بجانب وسادة أب لن يعود للبيت على أى حال ، وأن أعلق الناموسية فوق الوسادتين .

* * *

فى حوالى ظهر اليوم التالى كنت أغسل الفوط واللفف بجانب البئر أمام البيت . كانت بنتنا الصغرى « توشيكو » قد ولدت فى ذلك الربيع ، عندما جاء يسترق الخطى كأنه لص . وانحنى دون كلمة ، ودخل ، بل أوشك أن يقع من الباب الأمامى ، كان يعانى الألم وكان ذلك أكثر مما أستطيع أن أحتمل ، لم أستطع أن أواصل الغسيل . وتبعته إلى داخل البيت .. وقلت :

- لابد أن الجو كان حارا .. لماذا لاتخلع الكيمونو ؟

استلمنا اليوم زجاجتين من البيرة ، من التموين بمناسبة « الأوبون » ووضعتهما فى الثلج هل تحب أن تشرب زجاجة ؟

فضحك بضعف :

– بيرة ؟ تصورى ..

كان صوته أجش ، مهتزا لا ثقة فيه ، واستطرد :

– سأشرب زجاجة إذا شربت معى .

ودار بذهنى أن فى ذلك مزاحا غريب المتناول ، ولكنى أجبت :

– طيب ، سأشرب معك .

كان أبى يجيد الشرب ، وكان بوسعى أن أشرب أكثر من زوجى . بعد أن تزوجنا مباشرة كنا نذهب إلى البارات الصغيرة فى شينجوكو . وكان وجهه يتضرج باللهب على الفور ، أما أنا فلم أكن أحس شيئا إلا نوعا من الصفير فى أذنى .

فى الغرفة ذات الحصر الثلاث ، والأولاد يتناولون الغداء ، وأبوهم يشرب البيرة ، نصف عار ، وعلى كتفيه فوطة مبللة – وأنا معه لا أشرب وإنما أؤانسه – بعد القدح الأول – فمن الاسراف أن أشرب بعد ذلك ، وأرضع « توشيكو » – كنا فى المظهر عائلة هادئة سعيدة . ولكن فى الجو فتورا ، والحديث غير ميسر ولا سهل المأتى ، كان يتجنب عينى ، وكنت أحرص فى الحديث على اختيار موضوعات لا تمس وترا حساسا . وكانت ماسكو ويوشيتارو ، إذ يحسان بهذا التوتر يظلان صامتين على نحو غير طبيعى ، إذ يغمسان الخبز الجاف فى الشاى المسكر . قال :

– عندما يشرب المرء فى النهار يؤثر فيه الشرب بسرعة .

– هذا صحيح . فقد احمر لونك من رأسك إلى أخمص قدميك .

ورمقته بنظرة . كانت تتعلق بكتفه فراشة أرجوانية اللون . لا ، لم تكن فراشة ، كنت قد عرفت تلك العلامة التى تتخذ شكل فراشة ، بعد أن تزوجنا بقليل . وأجفلت عندما رأيتها ومد يده مرتبكا وحرك طرفا من الفوطة المبللة لكى يخفيها ، علامة عضة ، كان قد وضع الفوطة أولا على كتفه حتى يغطى تلك الفراشة . واستطعت أن أتظاهر بأننى لم أر شيئا .

قُلت :

– ألا يحلو طعم الأكل ياماساكو عندما يكون أبوك هنا يأكل معنا ؟

كنت أحاول أن أمزح ، لكن كلامى جاء محملا بأصداء ثقيلة ألقت بظلها على الحديث وكاد التوتر ألا يطاق ، عندما عزفت الأوركسترا فى الراديو من مكان ما ، نشيد « المارسييز » واستدار يستمع إليها .

وقال . كأنما يحدث نفسه :

– نعم الرابع عشر من يوليو . يوم الباستيل .

ثم ضحك بصوت خفيض ، وقال موجها نصف الحديث إلى ماساكو ونصفه لى :

– فى الرابع عشر من يوليو .. الثورة ..

وانكسر صوته . ونظرت إليه . كان فمه شائها ، وكانت الدموع فى عينيه . وبدأ كانما يقاوم الدموع ويردها . كان يوشك على أن يجهش بالبكاء عندما قال :

- الباستيل ، السجن . هاجمه الشعب . تجمع الناس من كل مكان ليهاجموه . وبذلك انتهت الحفلة فى فرساى ، إلى الأبد . إلى الأبد . انتهت إلى الأبد . كان يجب تدميره كانوا يعرفون أنه من المستحيل ، إلى الأبد ، كان يجب تدميره ، كانوا يعرفون أنه من المستحيل إلى الأبد . بناء نظام جديد . وقانون جديد . ولكن كان عليهم أن يدمروا . قال صن يات سن عندما مات أن الثورة لم تنته بعد . الثورة لاتنتهى أبدا . نهاية الثورة شىء مستحيل إلى الأبد . ولكن علينا أن نبدأ الثورات .. هذا شأن الثورات : حزينة وجميلة . تسألين أى خير يمكن أن يتأتى عنها .. الحزن ، والجمال .. والحب .

كانت « المارسييز » مازالت تصدح ، وكان يبكى وهو يتكلم . ثم اغتصب لنفسه ضحكة بخجل . وقال :

- أبوك جاءته نوبة بكاء من الشرب ياماساكو ..

واستدار وخرج ليغسل وجهه ، وهو يقول :

- سكرت .. أبكى على الثورة الفرنسية ، سكرت .. وسأدخل أنام .

شمل الهدوء البيت عندما دخل إلى الغرفة ذات الحصر الست . وكنت أعرف أنه مايزال يبكى .

لم يكن قد بكى للثورة الفرنسية . ولكن لعل ثورة شبت فى فرنسا هى أشبه شىء بحب دخل إلى عائلة واقتحمها . والألم الناجم عن ضرورة

تدميرهما كليهما : رومانتيكية البلاط الفرنسى ، وهدوء البيت ، فى سبيل الحزن والجمال – كنت أفهم هذا الألم حق الفهم . ولكننى أيضا كان لى حبى . لم أكن أوسان المخدوعة . هذا صحيح . ومع ذلك فقد تجاوزتها ، تجاوزت فلسفة الثورة والتدمير ، كأنما لم تكن لى صلة بأغنيتها التى تنتحب فيها :

لماذا بقيت وحدى ، مهجورة مستوحشة ؟

هل أرعى فى صدرى شيطانا ؟

أثعبان فى صدرى ؟

وعندما تجاوزتها ، كنت زوجة قد هجرت وحدها ، مهجورة دائما فى البيت نفسه ، لا تلبس إلا ثوبا واحدا لايتغير ، تصعّد التنهدات الكئيبة التى لاتتغير . هل يتحتم علىّ أن أسلم بقدرى ، لا أفعل إلا أن أصلى حتى تهب علىّ رياح حبه من جديد ، فى يوم ما ؟ كانت هناك الأولاد الثلاثة . ولم أكن أستطيع أن أنفصل عنه بالطلاق .

وكان أحيانا يقضى الليل فى البيت ، بعد أن يغيب عنه ليلتين متعاقبتين .

كان يلعب فى الشرفة مع الأطفال ، بعد أن فرغنا من العشاء ، وكان يبدو أنه يخطب ودهم ويستميح رضاهم . وتناول الطفلة الصغرى بين ذراعيه ، بحركة محرجة متعثرة .

– أليست حلوة .. أليست بضة حلوة ..

فقلت ، بدون سبب واضح :

- حلوة ، أليست كذلك . عندما يرى المرء الأطفال يحس أنه يريد أن يعيش طويلا .

فبدا على وجهه تعبير غريب ، وتمتم بشىء كأنه يئن . وأحسست فجأة أننى مبتلة ، لزجة .

وعندما كان ينام بالبيت ، كنا نعلق الناموسية على سريره وسرير ماساكو فى الغرفة ذات الحصر الست وكان يخلع لماساكو ملابسها ، بالرغم من ممانعتها قليلا ، فى حوالى الساعة الثامنة . فقد كانت تؤثر أن تلعب مع أبيها فترة أخرى من الوقت بعد . ولكنه كان يطفىء النور ويذهب لينام . هذا كل شىء .

كنت قد أدخلت الطفلين الآخرين فى سريرهما .. واشتغلت بالخياطة حتى الحادية عشرة . وعلقت الناموسية ودخلت السرير أنا أيضا - الأم بين طفليها : وليس الحال كذلك فى العائلات الأكثر حظا من السعادة ، حيث ينام الطفل بين أبويه .

لم يواتنى النوم ، وكان ، فى الغرفة المجاورة مسهدا قلق المضجع . وسمعت تنهده ، وتنهدت أنا أيضا ، وفكرت مرة أخرى فى أوسان :

لماذا بقيت وحدى ، مهجورة مستوحشة ؟

هل أرعى فى صدرى شيطانا ؟

أثعبان فى صدرى ؟

وجاء إلى الغرفة . فتصلب جسمى ، ولكنه لم يقل إلا شيئا واحدا :

– أليس لدينا حبوب منومة فى مكان ما ؟

– كان عندنا ، لكنى أخذتها الليلة الماضية . ولم تنفع بشىء .

فقال بشىء من الامتعاض :

– لاتنفع بالطبع إذا أسرفت فى استعمالها ، لاينبغى أن تأخذى أكثر من ست حبوب .

واستمر الجو حاراً ، يوماً بعد يوم . كانت الحرارة والهموم تعيينى على الطعام وأخذت عظام وجنتى تتهضم وتبرز يوما بعد يوم ، وشح اللبن فى صدرى لارضاع الطفلة . ولم يكن هو مقبلا على الطعام . كانت عيناه غائرتين متقدتين بنار رهيبة . وفى أحد الأيام راح يضحك كأنما يضحك على نفسه . وقال :

– من الأسهل علىّ أن أجن .

– أعرف بالضبط ماذا تحس .

– ولكن ما من حاجة بالأصحاء من الناس أن يتعذبوا . لايسعنى إلا أن أعجب بكم جميعا – كيف تستطيعون أن تستمسكّوا بأسباب السلامة والاستقامة ؟ أتساءل ما إذا كنا من البداية منقسمين على أنفسنا – البعض يمكنه أن يبحر عبر الحياة ، والبعض لا يستطيع ..

– ذلك أننا أغبياء قليلا ، ولكن ..

– ولكن ؟

نظر إلىّ وعلى وجهه تعبير غريب ملتو ، كأنما جن حقا . ولم أستطع أن أقولها . سقطت الكلمات مرتدة إلى فمى . كانت الحقائق أرهب من أن تقال .

– ولكن .. عندما تتعذب أتعذب أنا أيضا .

– أهذا كلّ شىء .

وابتسم فى راحة .

ولأول مرة منذ زمن لاأدرى مداه ، أحسست موجة باردة من السعادة .

(هذا ماينبغى أن يكون . لو استطعت أن أخفف عنه لكان فى وسعى أن أشعر بقليل من العزاء أيضا . لم تكن المسألة مسألة خير أو شر . أن أخفف عنه – فى ذلك كل الكفاية) .

وعندما تقدم الليل ، زحفت إلى داخل الناموسية التى كان يتمدد تحتها . وقلت : إذ رقدت بجانبه :

– لا تقلق ، كل شىء على مايرام .

فقال مازحا ، بالانجليزية ، وهو يجلس :

– معذرة .

وكان صوته أجش خشنا . ثم أضاف بالانجليزية أيضا ، كأنما يجيب عنى :

– من فضلك ، من فضلك .

كان قمر الصيف بدرا مكتملا ، وتسللت بضعة أشعة فضية من خصاص النافذة ، ومن خلال الناموسية ، وضربت صدره الناحل .

قلت وأنا أحاول المزاح أنا أيضا :

– أصابك الهزال .

وجلست .

– وأنت أيضا أصابك الهزال . ركبتك الهموم .

– ولكنى قلت إن كل شىء على مايرام . لايهمنى شىء . أنا من الذكاء بحيث لايهمنى شىء ولكنى ..

وضحكت .

– ولكن يجب أن تكون طيبا .

وكنت أجد فى ذلك فكاهة ومدعاة للضحك ، وعندما تزوجت رويت له الحكاية ، وكان يضحك أيضا .

وقد ضحك مرة أخرى عندئذ ، ولكنه عاد على الفور فأصبح الزوج الجاد الذى أعرفه وقال :

أنا أريد أن أكون طيبا معك . أن أحميك ، أن أكون طيبا معك . أنت إنسانة طيبة ، كما تعرفين . لا عليك أن تقلقى نفسك بأمور لاتهم . عليك أن تحتفظى بكبريائك وعليك أن تحتفظى بتوازنك . أنا لا أفكر فى أحد

غيرك .. لا أحد سواك . تأكدى من ذلك دائما .

كان يتكلم بجدٍ كاد يُفسد الحديث . ونظرت إلى الأرض. ثم قلت أخيرا بصوت خفيض :

- ولكنك تغيرت .

(كان من الأيسر علىّ ألا تفكر فىّ ، أن تكرهنى . أن تبغضنى . هذا هو الجحيم ، أن تفكر فى وأنت تحتضن امرأة أخرى بين ذراعيك .

الرجال يخطئون عندما يعتقدون أن من واجبهم أن يتذكروا زوجاتهم . هل يُسرون إلى أنفسهم أن ذلك هو الصواب ، هل يُطايبون ضمائرهم ، هل يجدون من الرجولة : أن يبقوا على تذكرهم لزوجاتهم بعد أن يجدوا امرأة أخرى ؟ الرجل يبدأ فى أن يحب امرأة أخرى ، ثم يصعد تنهدات ثقيلة أمام زوجته ، ويستعرض أساه القاتل . وسرعان ماتنتقل العدوى إلى زوجته التى لابد أن تتنهد أيضا . لو كان الزوج يتناول المسألة كلها بخفة ومزاح ومرح لكان من الممكن أن يوفر على زوجته هذا الجحيم . أنت تحب امرأة أخرى .إنْسَنِى إذن . وامض فى حبها خفيف القلب) .

ضحك بضعف وقال :

- تغيرت ؟ لم أتغير . إنها حرارة الجو ، هذا كل شىء . لا أطيق الحرارة .. الصيف .. أرجو المعذرة .

ماكان بالوسع الرد عليه بشىء . قلت وأنا أضحك ضحكة مقتضبة ،

كأنما أهم بضربه :

- أنت أحيانا تُثير الضيق جدا .

ثم انسحبت من الناموسية ، وعدت إلى غرفتى ، وتمددت بين الطفلين .

ولكن كان باستطاعتى أن أمازحه قليلا ، أن أتحدث إليه ، أن أضحك ، وبدا كأن الثلج الذى يحدق بقلبى قد أخذ يذوب . ولأول مرة منذ ليال كثيرة أمكننى أن أنام حتى الصباح ، وقد خلصت من الهموم المعتادة .

وتغير تفكيرى ، لو استطعت أن أداعبه بين الحين والحين ، أن أمزح معه بين الحين والحين ، لو استطعت أن أعرف الراحة والهدوء قليلا ، ساعة أو ساعتين ، فما من أهمية لأنه يخوننى ، فيم يهمنى الخطأ والصواب ؟ لو استطعت أن أحصل على ذلك ، فما حاجة بى إلى شىء آخر . كنت أحيانا أقرصه فى دعابة ، وتتردد أصداء الضحكات فى البيت . ثم قال لى ذات صباح إنه يريد الذهاب إلى أحد حمامات المياه المعدنية الساخنة .

- رأسى يصدعنى . ولا أطيق الحرارة . هل تعرفين ذلك المكان فى ناجانو .. أحد أصدقائى يقيم غير بعيد منه . وقد قال لى أن أسافر فى أى وقت أريد وألا أهتم بأن آتى معى بالأرز ، لابد أن استريح أسبوعا أو أسبوعين وإلا جننت ، بهذا الشكل لابد أن أخرج عن البلد .

أكان مسافرا لكى يهرب منها ؟ سطعت الفكرة فى ذهنى . وضحكت :

- وماذا أفعل إذا هاجم البيت لص وأنت غائب ؟

(لماذا يضحك بهذا الشكل ؟)

- أوه ، قــولى له إن زوجك مــجنون . اللصـــوص المسلحـــون لا يستطيعون أن يقاوموا المجانين .

ولما لم يكن لدى ما أعترض به ، فقد مضيت لآتى بحلته الجديدة . ولكنى لم أستطع أن أعثر عليها . فقلت له ، وأنا أحس الدم يغيض من وجهى :

- ليست هناك . أتعتقد أن اللصوص دخلوا البيت عندما كنا غائبين ؟

- بعتها .

وابتسم كانما يوشك أن يبكى .

واستطعت بشكل ما ، أن أخفى دهشتى :

- كنت سريعا جدا .

- أنا الخطر الحقيقى ، لا اللصوص المسلحين .

كنت موقنة أنه باعها لحاجته إلى المال يعطيه تلك المرأة .

- ماذا تلبس إذن ؟

- القميص والبنطلون .

قال لى ذلك صباحا ، وسافر بعد الظهر . لم يكن يريد أن يبقى فى البيت دقيقة واحدة أطول مما كان مضطرا إليه . إلا أن السماء أمطرت يومها ، بعد أيام طويلة متعاقبة من الحر اللافح . لبس حذاءه ، ووضع

حقيبة السفر على كتفه وجلس على العتبة ينتظر انقطاع المطر .

وتمتم فجأة ، ونفاد الصبر يرتسم على وجهه :

– هل يزهر « الآس » مرة كل سنتين فقط ؟

لم يكن « الآس » عند الباب ، قد أزهر .

فأجبت شاردة الذهن :

– هكذا يبدو .

وكان ذلك آخر حديث بيننا .

وكفّ المطر ، ومضى عن البيت يكاد يجرى جريا ، وبعد ثلاثة أيام ظهرت الصحف وفيها نبأ موجز عن حادث الانتحار فى بحيرة « سوا » .

وبعد ذلك جاء الخطاب الذى كتبه من فندق « سلوا » . (أننى لا أموت مع هذه المرأة فى سبيل الحب ، أنا صحفى . والصحفيون يحثون الناس الآخرين على الثورة والتدمير بينما ينسحبون هم ليمسحوا العرق عن جباههم . الصحفى ينتمى إلى جنس عجيب . هم شيطان عصرنا . لا أطيق بعد الآن احتمال كراهيتى لنفسى .. سأموت على صليب الثورة . هل سمعت قط بفضيحة عن أحد الصحفيين ؟ لو كان موتى من شأنه أن يجعل شيطان عصرنا يتغير ، خجلا ولو قليلا ، لمرأى نفسه . لكنت سعيدا ..) .

إلى آخره . كلام فارغ ، وإننى لاتسائل أما من بد أن يكذب

الرجل وأن يتخذ مواقف زائفة حتى النهاية ؟ أما من بد أن يتشبث بهذه الأهداف الرصينة ؟

وسمعت فيما بعد ، من إحدى صديقاتى ، أن هذه المرأة كانت فى السابعة والعشرين من عمرها ، وأنها كانت إحدى محررات مجلته ، وعندما كنت فى آمورى كانت تدخل وتخرج من البيت وكانت تقضى الليل أحيانا فى البيت . وحملت . تلك هى الحكاية باختصار . ثم يموت وهو يهتف بالثورة . وأدركت إلى أى مدى كان رجلا لاقيمة له .

تقوم الثورات لتسعد الناس . لست أثق بالثورى الذى يحمل وجها فاجعا . لماذا لم يستطع أن يحبها بسعادة ، على ملأ من الناس ؟ لماذا لم يستطع أن يحب بحيث كان من الممكن أن تكون زوجته أسعد وأهنأ حالا ؟ وبغض النظر عن عذاب المحبين ، فإن الحب الذى يشبه الجحيم ليس أمرا يروق مرآه للعابرين .

إن الثورة ، الثورة الحقيقية ، هى تغير سريع ، سهل فى الروح . فإذا أمكن أن يوجد ذلك ، فما من حاجة إلى قيام مشاكل عميقة . ودار بذهنى : ياله من « صليب للثورة » بينما لم يستطع أن يغير مشاعره بإزاء زوجته نفسها ، وسافرت مع الأطفال الثلاثة إلى « أسوا » للرجوع بالجثة ، كان شعورى بالغضب والحزن أقل من احتمال نفسى للفزع والروع أمام السخف الكامل فى الأمر كله .

محمد ديب

ولد محمد ديب فى تلمسان ، الجزائر ، فى ٢١ يوليو ١٩٢٠ ، واشتغل مدرسا ، ومحاسبا ، ونساجا ، وصحفيا ، وناقدا مسرحيا ، ومنذ العام ١٩٤٦ بدأ يكتب بالفرنسية قصائدَ ومقالات وقصصا قصيرة ، وقد عُرف عند القراء العرب بترجمة كتبه الشهيرة « البيت الكبير » و « الحريق » و « النول » ، ثم مجموعة قصصه القصيرة « فى المقهى » .

تناول محمد ديب حياة صغار الناس بفهمٍ ومحبة وصوَّر مشاهد من كفاح الجزائريين – حرفيين وفلاحين – ضد الاحتلال الفرنسى ، بحساسية مرهفة إزاء حركة الجماهير وحركة الروح معا ، تقلبات التاريخ ومسارات الوعى معا .

فى روايتيه « الصيف » و « من يذكر البحر » ينتقل محمد ديب إلى طور آخر من كتابته ، يمتزج فيه الواقعى البحت بالرمزى » ، حين يبحث عن تصوير للأهوال التى يعانيها الناس ، وأحلامهم ، وهذياناتهم .

نشر محمد ديب مجموعة شعرية بعنوان « الظل الحارس » فى ١٩٦ .

وتوالت له بعد ذلك رواياتٌ ونصوص فيها شاعرية محلِّقة .

تضم قائمة أعماله : « رقصة الملك » رواية ، و « نماذج » قصائد ، و « معلم الصيد » رواية ، وحكايات للأطفال بعنوان « حكاية القط الزعلان » ومن كتبه الشعرية أيضا « النار » ، النار الجميلة » .

الطلسم

محمد ديب

عدت إلى بلدى . ليس ذلك حلما . رجعت إلى الجبال التى شهدت حداثتى . وتنكشف مهاد الأرض ، فجأة ، وقد أدارت ظهرها إلى السفوح . وركنت جاثمة فى فج من فجاج الجبل . بعد أن ينعرج الطريق إليها ، متوزع الشعاب . ولزام على المرء أن يترك الطريق ، وأن يرقى درب الماعز مصعدا من بطن الوادى ، وفى نهاية الدرب تتلقاه تلك الشعبة النائتة من كتف الجبل ، فيحس على الفور أنه فى عزلة أشد وقعا من عزلته فى عرض البحار . المساكن : بضع أكوام من الطين وكهوف منقورة فى قلب الصخر تسدها الجدران . هى الأكواخ والكهوف نفسها التى شهدت مولدى ، وشهدتنى طفلا أجرى . كل شىء خاو مهجور ، وترووده مع ذلك ظلال خرساء . ثمانى أو عشر مواقد ، لم يكن هناك قط أكثر من ذلك – ولم يكن المكان يحتمل أكثر منها . والصمت وعداوة غامضة كأنها تتكفل بوقايتها من الغرباء ، وتحظر عليهم التغلغل بين هذه الحيطان المشققة وهذه السقوف المفتوحة الغائرة التى تنمو عليها خصل العشب الأثيث . تتناثر على الأرض ، هنا وهناك ، أوانٍ من الفخار ، وبقايا أطباق من الصلصال المحروق ، وكوانين النار برمادها القديم ، وبضع فؤوس ومجاريف ... ويحيط بذلك كله أعواد الصبّار ، بلا حراك ، قائمة فى جلال طقوسى ، تشهر حزما من سيوفها فى وجه السماء . وعلى نتوءات الجبل وشعابه ، حيث النباتات الوحشية مشعثة

الجدائل تصهدها الشمس ، تجرى الرياح وتزمجر . هذه ترنيمة غير مفهومة لكنها وادعة ساجية ، تحملها الرياح ، كأنما تتحدث إلى الأرواح الهائمة فى غير رضى ، على هذه الأرض . لاشك أن هذه الأرواح تصعد ، فى فلول مدحورة ، من فسحة الأرض على الجانب الآخر من تلك الأرض الأخرى التى يحرسها نوم الأشجار السوداء ، والجَمَد .

وجيرانى ، هل يعودون هم أيضا ؟ ربما . من يدرى . الحقول التى تنازعوها مع الصخر ، ومع النخيل القمىء ، مزقة بعد مزقة ، مازالت تنتظرهم ، متناثرة ، بين تقلصات الجبل ، وينتظرهم بعد ذلك مشهد آخر .

كان الطريق الذى أتى بى قد اتخذ منعرجات غريبة ، حتى لقد عجزت ذاكرتى - سواء عادت إلىّ مشاهد الليل أو النهار ، ومهما عقدت إرادتى - عن أن تستعيد مسار الطريق . ولذلك بلا شك ، لم تؤثر فىّ الآن هذه الأطلال وهذا الصمت الذى تلتف به الأشياء ، وهذه العزلة . أتكون الرحلة بهذا الطول عند الآخرين ؟ نعم ، بلا شك .

ومن ثم فإننى سوف أكون الحارس على هذه البقاع ، لم أعد بحاجة لبيت آوى إليه ، ولا لموقدة اصطلى بنارها ، ولا لفاكهة الأرض للبقاء حيا . بل أقطن النور والهواء اللذين يسطعان إلى الأبد . فى وسع الشمس أن تنحدر كل مساء للأفول ، وأن تشرق فى الغداة ثم تغيب : لن تهمد حراستى ولن تتخاذل لى يقظة ، سوف أقضى ذلك الوقت كله مفتوح العينين ، سوف يذكرون بيوتهم ، سوف يعودون : ولن تذهب حراستى سدى .

لم أكن قد عبرت حدود جبالنا من قبل قط ، بل لم أكن قد وطئت مناكب الجبل التى يحيط بها البصر حوالينا . وجاءت الحرب . رأينا هذه الجبال نفسها تسير . ومن بين كل السنوات التى دار فيها القتال ، كان نصيبنا خمسة عشر يوما . خمسة عشر يوما من الحديد والنار . قُضى على الرجال ، والحيوانات ، وشتتوا ، وهدمت البيوت ، سلام على الموتى وعلى الباقين على قيد الحياة .

وكنت أهبط ، مع الجيران ، ليلة بعد ليلة إلى ماتحت القرية لنعود بجثث الفلاحين . كنا نؤثر المغامرة بحياتنا على أن نترك أهلنا نهبا للغربان . كان مقاتلونا لا يظهرون للعيان ، لكنهم كانوا هناك ، موجودين ، وكانوا صامدين مهما حدث . كنا نعرف أنهم سوف يواصلون النضال حتى بعد أن نختفى . وفى إحدى المرات ، رجعنا بابنى ، طايب ، من بين الذين أوقع بهم التعذيب .. ينتظرهم الآن مشهد آخر ، متناثرا مشتتا بين تقلصات الجبل .

... كان ذلك قد بدأ بهديد واصطفاق من الأبواب التى تتحطم . كان الجنود ، والرشاشات فى أيديهم ، يدفعون الناس خارج بيوتهم ، لم نكن نرى شيئا فى سدف الظلام ، والفجر مايكاد يمد خيطا أبيض على الأفق . وتردد زوج أختى ، حامد ، لحظة ، فى الخروج فاخترق جسده ، وهو فى مكانه ، وابل من الرصاص . ولكن الاضطراب لم يدم طويلا ، فقد وجدنا أنفسنا معاً شيوخا ، وشبابا ، نساء ، وأطفالا ، كان علينا أن نحملهم بين أذرعنا ، متجمعين فى منعطف من الأرض الممهدة . وفى

غبشة نور الفجر الرمادية ، رأينا زادنا من الزيت والتين يسكب على الأرض ، وأغطيتنا وألحفتنا تمزق مزعا صغيرة ، وماشيتنا يطلق عليها الرصاص ، كانت الحمير والدجاج والكلاب التى استطاعت أن تهرب ، تزعق من الرعب ، وتهيم على المنحدرات ، أما الحيوانات الأخرى فقد كانت تتخبط مضرجة بدمها .

وصدر إلينا الأمر بالمسير ، والأسلحة مسددة إلينا . وبدأنا نسير على الطريق ، بعضنا لايلبس إلا قميصا ، وكلنا حفاة الأقدام . لم تكد قافلتنا تصل إلى بطن الوادى حتى تزلزل الجبل بالانفجارات . وكنت أفكر فى منزلى .

كانت الشمس قد بزغت بالفعل عندما وصلنا إلى القرية .

ساقونا إلى مبنى من الحجر ، وهناك تكومنا فى قاعة غائرة ، كانت هذه القاعه مرصوفة بالبلاط ، وجدرانها المكسوة بالبلاط الخشن المحبب ، تشبه حماما قديما : حماما بلا بخار ، ولا ينساب فيه خرير المياه التى تغلى ، وإن كانت ترين فيه عتمة الحمام وظلاله . كان الباب يختنق فى كثافة الجدران . وكانت الكوى الدائرية ، وهى الفتحات الوحيدة التى يرتشح منها النور علينا ، تنظر إلينا ، شزرا ، بعيونها البيضاء ، من خلال سقف القبو .

لم نكن قد قضينا فى هذا القبو إلا بضع لحظات عندما بدأت تخالطنى مشاعر غريبة . أكنا محبوسين هنا منذ أسابيع عديدة ؟ وما هذه الحيطان التى تتقارب ، وتنفرج ، دون أن تحس ؟ كان ثم شىءٌ

يترصدنا فى العتمة . ويجب أن يراقبه المرء .. ويتابعه .. كل نبضة من دمي يتردد لها ، من بعيد ، جَرْس ضربة ناقوس لا تنتهى ، تدوى من عالم إلى عالم آخر . وعلى الرغم منى ، اتخذت هيئة الموتى ، ورأيتنى لحظة أن تتلقى الأرض جثتي . ونسيت ماكان على أن أراقبه .

لم يرتفع صوت . قسرت نفسى على أن أرفع بصرى إلى الآخرين . مامن واحد منهم يتحرك : إما من التعب والرهق ، أو من الخوف .

وأدركت عندئذ أن هذا السجن سوف يكون آخر صورة نحملها من هذا العالم . وانبثقت أمام عينى صورة الرجال الذين جاءوا ، بالأمس ، من الجبال المجاورة ، لكى يشنوا هجمة قاتلة على المركز العسكرى . ساعدناهم ، وأيدناهم بكل ماوسعنا الجهد ، وغطينا انسحابهم ... لست آسف على شىء ، لست آسف على أننى فعلت ذلك .

... بعد ساعات كثيرة - لست أدرى كم عددها - دار الباب على محوره ، بهدوء ، وبدا لى مما لا يصدق أن نفس النهار الذى شهدنا نصل إلى هذا المكان ، هو الذى انفتح عنه هذا الباب : كانت ثم هوة عميقة من الزمن قد غارت خلف الباب .

ودخل حرس مسلح ، ثم دخل ، هو : الضابط ذو العينين المخضرتين خضرة البحر ، طالما سمعنا عنه . فى يده مطرقة ، وأربعة رجال لوحتهم الشمس يحيطون به . وكانوا ، مثله ، لايرتدون إلا سروالا قصيرا . تقدموا نحونا ، وتصلبوا جامدين فى وقفتهم ينتظرون أوامره بينما اصطف الحرس على جانبى الباب . أما هو ، فلم ينبس بكلمة ، ولم يأت بحركة ، بل أخذ يرقبنا ، ثم تبادل نظرة مع مساعديه .

ووثبوا علينا .

أيمكن أن ينطلق جناح المخلوقات البشرية إلى ذلك المدى ؟ لا ، بالتأكيد . انقض هذا القطيع من الشياطين عليناجميعا ، يضربون فى كل اتجاه . وارتفعت الصرخات ، والدعاء ، والتضرعات ، ونداءات الاستنجاد ، فملأت القاعة وكان الأطفال يعولون .

وكان الحرس ، من الباب ، يسددون إلينا أسلحتهم النارية .

وأحاط بسجننا صمت طاش فيه اللب ، تقطعه أنّات شاكية .

وعندئذ ارتفع صوت واحد النبرة ، كأنه يصدر من وثن حجرى .

– عندكم خمس دقائق بعدها تتكلمون ، قولوا عن الأسماء ، قولوا عن مواضع الأسلحة ، قولوا عن المخابىء ، قولوا عن كل شىء .. خمس دقائق . ومن يتكلم سوف يخرج من هنا ، هو وعائلته .

كان هو الذى تكلم ، بلغتنا ، وأخذت أتفحصه : أنف أشم مستقيم ، وعظام حجاج العينين تنحدر على جانبى الوجه ، تعلوها جبهة مسطحة . ولكن النعومة كانت تلتفّ بجسده ، كما تلتف بأجساد النساء : وفى المواقع التى يظهر فيها الشعر عادة كان على جسمه زغب أشقر متجمد ، لايكاد يرى .

لم تأت إجابة من أحد . وخرج يصحبه أتباعه .

ومن الباب الذى بقى مفتوحا رأينا الفناء كأنه فى نهاية نفق . وشخصت العيون كلها إلى هذا الصهريج من النار . وعاد إلى الظهور ، يتبعه نفس الرجال الأربعة : كانت الخمس دقائق قد انقضت .

أخذ يتأملنا دون أن يبدو عليه أنه يرانا ، هذه المرة . وصعدت الصدور أنفاسا مكتومة . وأخذت حشرجة تصعد وتهبط فى حلق سليمان العجوز . وقد نسى أن يطرد عن صدره صوت الزحير الأبح . كانت الحرارة قد أخذت تعلو . وبدأ الهواء يضطرم ويحتدم بألسنة اللهب المؤرثة . وكان رمضان ، وهو فتى فى الرابعة عشرة من عمره يجلس فى الصف الأول ، قد وضع رأسه على ذراعيه المنعقدتين فوق الركبتين . كان يهوم من النعاس أو لعله كان قد أغفى ، من الرهق والكلال . كان الضابط قد وقف على رأسه ، بعد خطوتين ، وأمسك به من كتفه . انفتحت عينا الصبى ، واهتزتا . ومع ذلك فقد تسلحت عيناه بابتسامة . ولم يفقد صوابه ، وثباته ، إلا عندما رأى نفسه وقد جر إلى وسط القاعة وأحاط به هؤلاء الناس . ومع ذلك فلم يقاوم . بل ألقى نحونا بنظراته ، يحاول أن يتغلب على فزعه .

وانشق قميصه وسرواله بضربة واحدة من خنجر . واضطرب رمضان وأحرجه عريه المفاجىء ، فلم يجسر بعد ذلك على أن يستدير نحونا . أخذ يرفس كحيوان لم يذلله الترويض ليستعيد حريته ، ولم يجد الرجال الأربعة أهون مشقة فى أن يحيطوه بحزام محكم . وكان كل شىء سريعا حتى لم ألحظه إلا بعد مرور برهة من الزمن : عندما ألقى به الرجال الأربعة على عارضتين من الخشب ، موثق اليدين والقدمين .

انحنى عليه الأربعة معا ، ومعا غرسوا سكاكينهم فى جسمه وجأر الصبى صارخا . وبعد ذلك –

جأر بالصراخ ، تنساب على جسمه أمواج من الدم ، حتى اللحظة التى سطعت فيها عيناه بهول الهلع قبل أن تترديا فى الظلمات .

واستقام الجلادون من انحناءتهم . وأخذوا يرقبون الجسم الفتى ، فى حيرة ، وأذرعهم مدلاة إلى جنوبهم . كان النور الساقط من سقف القبو قد أدرك وجه رمضان ، وغمره . كان يبتسم فى بهجة لا اسم لها على هذه الأرض . رفعت نظراتى الوجلة إلى الكوى الدائرية : كانت تومض فيما وراءها حواجز شىء لايسبر غوره .

كان الطريق الذى أتى بى قد اتخذ منعرجات غريبة ، حتى لقد عجزت ذاكرتى ، سواء عادت إلى مشاهد الليل أو النهار . مهما عقدت إرادتى ، عن أن تستعيد مسار الطريق . الأحجار ، والمياه ، والهواء ، والأشجار تغطى وجهى بأيد غير مرئية ، ولعلها تغطيه بحزن من أحزان الضباب ، ولكن شيئا آخر يحيط بى وأنا أبحث عنه أتلمسه فى الضباب المنير هذا الصباح ...

رفع اثنان من الجلادين جسم رمضان ، وحملاه إلى الفُناء . كانت الأرض ، بين الأشجار قد تلطخت كلها ببقع الدم المتناثرة .

ونفذ إلى القاعة حرس آخرون ، مرد الوجوه ، عراة الصدور أيضا . ومر أحدهم بالقرب من المرأة زهرة ، ونزع عنها المشبك الذى كان يحفظ عليها رداءها ، وانتزع معه قطعة من القماش . وحدجها البعض بنظرة ثابتة ، ولكن الضابط الذى كان قد اختفى هو أيضا فى هذه الأثناء ، عاد إلى القاعة وأشار لمساعديه إلى جارى سعيد ، دون تردد ودون أن

يكلف نفسه عناء النظر إليه ، كان سعيد رجلا فى نحو الأربعين . وبعد صراع وحشى ، قصير ، تغلبوا على الفلاح ، وعروه كما عروا رمضان .

وما لبثت صرخاته أن ارتفعت . وأخذت تزداد ارتفاعا ، ثم استحالت إلى هنين قصير كأنه يند عن رضيع . واستمر ذلك طوال أبدية لاتنتهى . وكان بكاؤنا يصاحب أنينه . كان الدم ينساب من ملتقى شفتيه ، وعنقه ، ورسغيه وساقيه ، وتظاهر الحرس مرة أخرى بأنهم سوف يصبون علينا وابلا من الرصاص ، حتى يستتب الصمت . احتجزت دموعى ، ولكن الآخرين استمروا فى النحيب الخفيض .

كان الضوء الذى قد مس رمضان منذ قليل قد تعلق الآن بعرى الجلادين . وكسا أجسامهم التى استبد بها سعار الجنون وأحاطت بها حلقات الظلال المضطربة حيث بقينا ، تغمرنا طواياها . آثرت أن أغمض عينى حتى لا أسوم نفسى واجب السؤال عما كانوا يحدُثونه هناك .

شهق سعيد ، وصليت حتى أساعده على أن يسلم روحه الشقية إلى بارئها . لم يكن يصدر عنه إلا صوت غرغرة خافتة واهية ، وارتعدت شفتاه عندما كان يلوح أنه يحتجز صرخة أكثر وحشية وشراسة من كل الصرخات ثم توقف صوت الغرغرة .

فتحت عينى . وكرر الصوت الذى لامعدن له ، قوله :

– عندكم خمس دقائق أخرى لكى تتكلموا .

أخذت النسوة تولول ، وكان قد أغمى على فتاتين بجوارى . وأتى

جندى بعربة يد ، حملت عليها جثة سعيد ، كومة من اللحم المعرّى الدامى ، ونقلت إلى الخارج . وامتدت بين قطع الخشب برك كثيفة قرمزية .

ألقيت بنظرة إلى زملائى ، وإلى الضابط الذى كان أدار ظهره إلينا ، وإلى الحرس ، وإلى حيطان سجننا ، وعرفت ، مرة واحدة ماذا كنت أبحث عنه ، يحدث للإنسان أحيانا أن يكون من الغرور بحيث يرى من حقه أن يفتح الأبواب السرية ولكنه لا يملك من قواه المحشودة ممايمكنه من رد الهول الذى تتدفق أمواجه منها بعد ذلك . ومن شأن الموت أن يكون رحيما ، وأن يحمل السلام والحرية لذلك الذى يأتيه ليغمض عينيه ، لولا أن الموت فى أعماق مكنونة ، ليس إلا تشبيها وتمويها ، ولولا أن الموت يسلمه إلى سخرية المظاهر التى لا تنقطع .. ! وذلك ، فيما بدا لى ، كان ما يحدث هناك .

كان الضابط يذهب ويجىء ، يدق البلاط بكعبى حذائه ، وكان يرفع ذراعيه ، بين وقت وآخر ، إلى رأسه ، ويتركها تسقط ، كان الأنين قد نضب معينه ، وجفت الدموع على الخدود . وكان الحراس المعسكرون على الباب ، منفرجى السيقان ، قد تحولوا منذ زمن طويل إلى تماثيل أرضية ، بل تخلى الرضع عن بكائهم ، ولم تتحول أعينهم عن هذا الرجل . وشهق أحدهم فى ركن من القاعة ، فبادرته عجوز بالتوبيخ بصوت عجول ملح ، وجمد الطفل بلا حراك وقد جف وجهه .

كان الضابط يرزح بثقله علينا ، بكل نظرته الخاوية ، البعيدة ، وينتظر .

وكان يحيى ، هذه المرة ، هو الذى جره الجلادون إلى التعذيب . كان واحدا من حشود المتطوعين الذين لا اسم لهم و الذين كانوا يظاهرون عمل المقاتلين ، فى كل مكان ، وبينما كانوا يجرونه ، تشبث به صغير أصهب الشعر ، يزعق صارخا . وتلقى الولد ضربة أرسلته يتدحرج على مسافة عدة خطوات ، ولم يأت بعد ذلك بحركة . اندفعت المرأة صديقة إليه ، وأخذته بين ذراعيها ، واحتضنته إلى صدرها .

ذهبت توسلات يحيى سدى دون أن تجديه شيئا . كانت رائحة الدم الإنسانى خانقة ، تسطع ، وتحبس الأنفاس فى القاعة .

وبعد ربع ساعة لم يعد يحيى يئن إلا فى رجفات متعاقبة ، وقد تمزق جسمه . امتدت تضحيته زمنا طويلا ، كان الهنين العميق الذى يند عنه يزداد عمقا وغورا ، كانت روحه تشق طريقها من خلال تنهدات بحاء متحشرجة .

وأخيرا ، وكما يحدث فى الأحلام ، للتخلص من قبضة الوحوش والمسوخ ، قال كلمة واحدة ، وسقط رأسه إلى جانبه ، انحنى الضابط بسرعة عليه ، وهو يدفع الجلادين بذراعه ، ظل يحيى ساكنا : وقد شخصت عيناه ، منذ الآن ، إلى المكان الذى كان يسعى إليه ، كان العرق يتفصد بقطرات كبيرة على أجسام الجلادين ، فأخذوا يجففون حباهم ووجوههم بظهر أيديهم : كانوا يرقبون ، فى فضول ، ذلك الحوار بين الميت والحى .

وخرج الضابط يحفزه إلهام مفاجيء . وعاد على الفور ، يسبق امرأة قوية متينة البنية ، يمسكها جنديان من ذراعيها . أولدجا ، زوجة رئيس الكتبة . وقد قبض عليها منذ بضعة أيام . كان ثوبها الممزع من العنق إلى الساقين يكشف عن بطنها .

وطوح بها إلى الأرض بالقرب من يحيى .

وفى هذه اللحظة انفتح الباب تحت ضغط دفعة عنيفة ، ودخل ضابط آخر شحب وجهه عندما وقع بصره على الجسمين الراقدين جنبا إلى جنب . وأمر الجلادين ، بصوت لانبرة فيه ، أن يتنحوا . فترددوا ، ثم تراجعوا وقد بدا عليهم الضيق . ودارت بين الرئيسين ، فى صمت ، مواجهة خشنة جافية ، كان القادم الجديد يرتعد ، وكان يلوح أنه لا يطيق مرأى الجلاد القائم بالأضحية ، فاستدار فجأة ، متجمدا ، دفعة واحدة . وأشار للجنود ، إلى المرأة ، و ضغط فكيه بقوة ، وأمرهم أن يرفعوها من الأرض . وسيقت أولدجا ، أمامه إلى خارج القاعة .

وما أن أوصد الباب خلفهما ، حتى اقترب أحد الجلادين من جثة يحيى ، وشق عنقه ، بضربة خنجر ، منحرفة من الفك الأعلى إلى الصدر ، وانبجست نافورة من الدم وسعت برك الدم التى تبلل الأرض ، ووثب الرجل إلى الخلف .

وكنت أنا الذى وقعت الإشارة عليه بعد ذلك . وتقدم عمى ، وكان قد أصيب فى الحرب الكبرى ، فأشار إلى ساقه المبتورة ، وضم قبضتيه متوسلا . ولكن تضرعاته اصطدمت بوجه من الحجر . وبينما كانوا

يجروننى إلى التعذيب ، أخذ عمران ، وهو من رجال الدين ، يقرأ صلاة الموتى بصوت عال . صفرت رصاصة فوق رأسه واصطفقت بالحائط ، فأخذته رعشة ، وصمت ، ولم أره بعد ذلك قط .

ومنذ تلك اللحظة – ماذا حدث ؟ – استحوذ علىّ نوم ملىء بالهلع ذاب فيه وجدانى ، وغمرنى . عشت كل شىء ، سجلت أصغر التفاصيل وأدق الدقائق . ولكننى كنت ، طول الوقت فى مكان آخر ، أفكر فى شىء آخر . كيف يفسر ذلك ؟ لاشك أننى ، تساندنى الرغبة فى أن أرد الألم اللاذع – حريق كان يلتهمنى ، ويهاجمنى فى أرهف نواة من كيانى حسا وعريا – كنت أحاول أن ألغى الزمن إلغاء ، فالزمن هو أصل العذابات . كنت أتجه بالسؤال إلى إشارات ، وخطوط ، وعلامات تشتعل ، وترتعد ، وتتراقص على القناع الأحمر من جفنى . كان كل رمز منها ، مرسوما بقسمات من نار ، يظهر غير مكتمل فى البداية ، فيه فجوات من موقع إلى موقع ، ثم يتحد وتدق ملامحه . وما لبثْتْ أن اتخذت أشكال كالحلقات ، تفاصيلها الواضحة على ذلك النحو ، على شكل خط ملتف حول نفسه فى داخل مربع غير مرئىْ الأضلاع .

ارتسم نقش الخط اللولبى منحوتا على بصرى الغائر ، ولم يمح . وعكفت ، فى نهم ، على أن أحل ألغازه ، روضت فى ذلك كل قواى . وحتى أبدأ فى ذلك ، كان لزاما أن أفك التفافه ، ونجحت ، بعد شىء من الجهد ، أن أتهجى بعض الحروف ، أما الحروف الأخرى – أخذت الصعوبات التى تواجهنى تزداد منذ تلك اللحظة – فقد ظلت عصية على

القراءة ، إما لأن الانتباه الذى أفردته لها قد نحاها ، مؤقتا ، بعيدا إلى حاشية اهتمامى ، وأما لأنها كانت ، من كل زاوية من زوايا النظر ، شيئا غير مفهوم . فمن يدرى ، لعلها لم تكن أكثر من تخطيطات جاءت بمحض الصدفة ، تلك التى تأتى الطبيعة بالكثير منها ؟

أسرفت فى إنفاق كنوز من الصبر ، أحاول أن أكسوها بوجه أعرفه . كنت أتبين أحد الحروف أولا ، على حدة كما فعلت بالحروف الأولى ، ثم اتبين حدود حرفين ، ولكننى ، عندما كنت أحس أننى قد قاربت النجاح وإذ انصرف عقلى إلى هذه الحروف على أهون وجه ، كانت الحروف الأخرى تضطرب وتتميع . وكنت أفقد حتى مجرد ذكرى شكلها .

عندئذ تخليت عن قراءتها ، حرفا بحرف ، وأخذت أدرس هيئتها العامة ، وترابط الحركات فيها ، وبنيتها ، أستعيد هيروغليفيتها الكاملة أمام عينى ، مرات كثيرة ، وأدركت فى تلك اللحظة ، أن الكلمات المتميزة المعالم ، تلك الكلمات التى ظننت أننى قد اقتفيت أثرها ، أخذت تنقلب رأسا على عقب فى نوع من الخبث والمراوغة ، أو راحت تتشكل من جديد على نحو مختلف ، وأنها فى النهاية كانت تندغم فى كلمة واحدة – بلا خلاف ولا حول فى ذلك – كلمة واحدة مكونة من جميع الكلمات الأخرى . أين توجد كلمة بمثل هذا الطول ؟ كانت هذه الكلمة ، من جراء وضعها الملفوف الدوار ، تبدو بلا نهاية . ومع أننى لم أتلقن الكلمات جميعا ، ويعوزنى منها الكثير ، فقد أيقنت على الفور أن هذه الكلمة مشتقة من لغة تقع فيما وراء كل اللغات ، وأنها لو عرفت لجعلت

كل اللغات لا طائل فيها ولا جدوى .. ومن ثم .. ومن ثم أحسست أننى أتهاوى إلى أرض تتلقانى بالترحاب ، وأننى أقترب من شىء ما . لم أكن اقترب من معنى ما ، بلا شك ، فقد ظل المعنى عصيا على متناول يدى ، كما كان منذ البداية ، بل كنت أقترب من ذكرى ، ذكرى لاتقدر بثمن ، وهى وإن كانت واعدة بأنها فذة لانظير لها ، سوف تضىء لنا اللغز كله . غامرت بالمضى إلى أبعد ما فى الإمكان ، على هذا الطريق البكر الذى تضيئه هالة من نار ، لم يكن ذلك يخلو من مشقة وعناء ، وفى أكثر من مرة أفصحت للسماء عن بغضى ومقتى واشمئزازى . وأنكرت سعيى . ولكن عينى كانتا تواصلان السير على الطريق المحفوفة بالأسرار .

واستعدت هذه الذكرى .

كنت قد اتخذت لنفسى لعبة فى ماض سحيق البعد ، وكانت اللعبة تتكون من اختيار بضع كلمات غير معروفة ، وصياغة جمل منها أنقشها على أشياء أنتقيها بحرص وعناية : أوراق شجر ، أو قطع من الخشب ، أو حصى أو عظام . فإذا فرغت من ذلك ، نثرتها بعيدا وتلوت دعاء أن يكون كل منها طلسما عند من يجده ، ويحفظه . وفى يوم من الأيام ، بذلت اهتماما خاصا حتى أبُزّ كل ما حققته من قبل فى هذا السبيل ، وشكلت أقوى جملة فى الوسع تصورها ، وأسلمتها إلى القدر ، شأن غيرها من الطلاسم .

كانت تلك هى الجملة التى تطفو الآن أمام عينى . وقد صعدت من المقام الخبىء بعد أن أفضت به إليها رحلتها التى لا يحيط بها الخيال

دون أن ينالها أدنى وهن . وكنت أنا الذى أتلقاها .

أغمضت عينى الداخليتين على هذه الرؤيا وتأملت فى معنى مغامرتى .

ولم يعد تفسير الكتابة الآن شيئا لاغنى عنه ، وما أن ادركت هذه النقطة حتى وصلت إلى السلام . ثم استأثر بى دوار من اليقين : كنت أتقاسم البركة والغبطة مع كل الكائنات المحروسة ؟ لقد سهر علىّ قدر خيّر عطوف . كنت فيما مضى أصوغ طلاسمى دون أن أفكر قط فى نفسى . وهأنذا قد أرسلت إلى نفسى فيما يتجاوز كل ما أتذكره ، أقوى الطلاسم وأعظمها جميعا . لم تبق إلا صعوبة واحدة ينبغى أن أظهر عليها – وفى ذلك الخلاص – هى أن أعرف إلام أدين بحظى . وأخلصت عقلى من جديد ، إلى ذلك . إن كل ظرف من الظروف فى نسيج الحياة ، ينطوى على سلسلة لانهاية لها ، ويؤذن بها ، ويقررها على وجه كلى شامل ، وعلى الفور . والانسان ، بالمثل هو قالب وتعبير معا ، نقش مرتسم على المادة غير المحدودة ، حرف حركة لا سبيل إلى تمايزه عما هو كائن . ومن ثم فإننى مجعول على صورة النقوش والتخطيطات التى كنت أرميها ، طفلا ، على حلقات العظام ، والحجر ، والخشب ، والحديد ، ولعلنى كنت على صورة كلمة واحدة من كلماتها ، أو حرف واحد من حروفها . كنت مخطوطا على نسيج ما هو كائن . هذا النسيج الذى صُنع منه الجلادون أصحاب الأضاحى ، شأنهم فى ذلك شأنى . وقد فصلت الظروف بالتأكيد بينى وبينهم : كنت أنا الحروف وكانوا هم القراء . ولكننى كنت أستطيع أن أبارك جسمى المصهور ، المحروق ،

المبتوت المفاصل . كان من الممكن أن تختلف الظروف ، فتجعل منهم الحرف وتجعل منى قارئا .

كانوا قوالب تصعد من حلم ، صامتة ، مغلقة على سرها ، يضطربون ويتحركون على حواف عالم لم يعد خاضعا لنا وإن كنا نعالج دائما أن نخضعه . بدا لى أننى قد أدركت الأصل والمنبع ، وبلغت النقطة المؤجلة إلى أجل غير محدود حيث تلتقى كل الطرق ، وكل الأشواق ، وكل الوعود . وبينما كنت أسلم نفسى إلى هذا التساؤل القلق ، أشرق النهار على حيز يصبح فيه الغَنَاء تعويضا ، والصمت نطقا ، والخواء موضوعا ، والسؤال إجابة ، والتمزق رضى وقبولا ومصالحة .

كانت الجبال التى أحرقتها الشمس تمتد على مدى البصر . يزدهر فيها الحجر ونبات الافسنتين . وهناك بعيدا ، فوق ذؤابات الجبل ، كانت الحرارة تميل بقناع من البخار إلى لون أقرب إلى الخضرة ،وتعلقه مشدودا حيث تنصهر السماء وتهيم نفثات من الهواء مشتعلة متلظية ، وتطول أغنية غير مفهومة فى بهرة النور الذى يعشى البصر .

كانت الهالة الحمراء التى تسير إلى قلب هذا الهمود الشامل ، تسهر على حراسة المشهد كله . ولادفاع لى أمام النور الذى تمده فيشمل كل شىء ، فى هذه الساعة . وأغدو جزيئا من جزيئات القوى التى تحملنى وتجتاحنى ، فريسة للثمل وللنار . ماعدت بحاجة لبيت آوى إليه ، ولا لموقدة اصطلى بنارها ، ولا لفاكهة الأرض للبقاء حيا . بل أقطن النور والهواء اللذين يسطعان إلى الأبد .. من سوف يرقى الدرب الذى يتلوى

مصعدا من بطن الوادى إلى هنا ، متعرج الشعاب ، من سوف يأتى يبحث عن بيته ، ويقيم حيطانه من جديد ، ويشعل النار مرة أخرى فى الموقدة ؟ من سوف يمضى إلى الحقول ، من جديد ، ويأخذ من جديد فى انتزاع الأرض من قبضة الصخر والنخل القميىء ؟ وعند هبوط الليل ، من سوف يتمدد على مضجعه ، على الأرض ، ويعرف الحس بالعزلة التى تسود فى عرض البحار ؟ من تعود به الذكرى ، فى هذه اللحظة ، إلى حرس هذه المساحات الممتدة الشاسعة التى مايكاد يعمرها صوت الرياح ؟ من يتخايل له ، منذ الآن صورة ذلك المشهد الآخر الذى يحرسه نوم الأشجار السود ، والجمد ، وتحلق فوقه هالة حمراء ؟ ..

ولكن ها هى ذى الهالة ، كأنها حجر نفيس يستكين فى راحة ، قد أدخلت أشعتها ، وأضاءت ، فى هذه الجبال ، نورا صافيا أعمق وأبعد غورا . سوف أسهر . سوف أنتظر .

ايدروس

كاتب اندونيسى ، لا أعرف عنه إلا أنه ولد فى سومطرة فى العام ١٩٢١ ، وأنه اشتهر بقصصه ورواياته النابضة بالحياة التى كتبها إبَّان – وعن – الاحتلال اليابانىّ لبلاده لكن هل يطمح المرء حقا أن يعرف أكثر من ذلك عن أى كاتب ، طالما أن معرفته بالكاتب إنما هى فى الحقيقة معرفته بالكتابة ؟ وإذا كنا نرى فى هذا التصوير الموجع للحياة فى أندونيسيا (وفى سائر عالمنا « الثالث » أيضا فى فترة من الزمن ، أو أخرى) ما يكفى لأن توجد بيننا وبين كاتبه قُربَى ، وصلةً تقرب من صلة الرحم ، أليس فى هذا ما يكفى ؟ .

أوه .. أوه .. أوه .. !

ايدروس

تعرف « سوكابومى » بجوها اللطيف ، ولكن الناس الذين يصطفون أمام نافذة التذاكر كانوا على وشك الموت من الحر . كانت قمصانهم قد غمرها العرق على ظهورهم ، وأعناقهم ، وتحت أباطهم . إلى جانب صف الآدميين ، وتحت أقدامهم ، كان الذباب أيضا يقف صفا ، أسود كشراب الكحة ، وقد عكف على غذائه من المياه القذرة . كان هناك من يسعل ، ويبصق ، باستمرار .

كان الرجل الذى يسعل شابا نحيلا فى هزال غصن ميت جاف . وكان يقف فى منتصف الصف . وسأله الرجل الذى يقف وراءه مباشرة : « لماذا تسعل ؟ ليس الهواء متربا هنا » .

فأجابه الشاب : « إننى أسعل فى أكثر الغرف نظافة . جئت لتوى من « باتجيت » وأريد أن أذهب إلى « جاكارتا » .

أخرج الرجل الذى يقف وراءه منديله وقال : « إذا كنت مريضا بصدرك فلا ينبغى أن تبصق على الأرض ، أليس كذلك ؟ هذا يجلب العدوى » .

سعل الشاب مرة أخرى ، وخرج من فمه لبن غليظ متخثر ، به احمرار فى وسطه ، كأنه العلم اليابانى .

وفى مقدمة الصف كان يقف إندونيسىّ يرتدى خرقا بالية . رفع يديه الضاويتين عبر نافذة التذاكر وأخذ يكرر نداءه : « تذكرة إلى جاكارتا فى الدرجة الرابعة » .

رمقه بائع التذاكر بنظرة حانقة وقال : « إذا لم تستطع الانتظار فيمكنك أن تذهب » .

فأجابه الإندونيسى ، غاضبا بدوره : « ظللت واقفا فى الصف نصف ساعة الآن ، ولم يهتم أحد بى ، أما ذلك الرجل فقد أخذ تذكرته قبلى » وأشار الإندونيسى إلى أحد موظفى المحطة خلف بائع التذاكر .

فازداد حنق بائع التذاكر وصاح : « ليس هذا من شأنك . هذا عملى أنا . إذا كنت تريد التعجيل فيمكنك أن تأتى من الخلف أنت أيضا . وهذا يكلف نصف روبيه إضافية » .

لم يجب الإندونيسى . هز رأسه إلى الأمام وإلى الخلف وأخذ يتمتم لنفسه متذمرا ساخطا : « لا لوم عليه . كل شخص يفعل مابوسعه ليكسب شيئا قليلا بالإضافة إلى أجره » وبعد أن تمتم لنفسه بهذا ، نظر إلى زكائب الأرز تحت قدميه ، واستطرد ببطء : « وأنا أيضا » .

خرج أحد الصينيين من الصف . كان يمسح العرق من على جبهته بمنديل مزركش ، وجاء إلى جانب الإندونيسى فى الصف . فغضب الإندونيسى ، وقال بنبرة ثابتة « من فضلك ياسيد . لاتخرج من مكانك فى الصف ، وإلا حاول الجميع أن يفعلوا مثلك . وينتهى ذلك بالتزاحم

والتدافع والمتاعب لبائع التذاكر » .

فأجابه الصينى ساخرا : « لا تثرثر على هذا النحو . أتعرف من أنا ؟ عندى تصريح من السلطة اليابانية » وقال لبائع التذاكر : « إلى جاكرتا فى الدرجة الثانية » .

فوجىء بائع التذاكر وقال : « الدرجة الثانية لليابانيين فقط يا سيدى » .

فضحك الصينى وهو ينظر إلى أصابعه وبها ورقة بخمسة روبيات وقال : « هذا هو التصريح . لا يمكن أن تكون التذكرة إلى جاكرتا بأكثر من روبيتين وخمسة وستين .. الباقى .. »

أخذ بائع التذكرة الورقة ، بسرعة ، من يد الصينى وقال وفى صوته نبرة الاحترام : « تفضل يا سيدى . جاكرتا فى الدرجة الثانية » .

خرج القطار من محطة « سوكابومى » . كان الصينى يجلس فى الدرجة الثانية ، مبتسما يضحك بعذوبة لفتاة أوراسية . كان الناس محشورين حشرا فى الدرجة الثالثة والرابعة . كانوا يتبادلون الشكوى ، ويجأرون بالصراخ أحيانا من الزحام .

شق المفتش طريقه من الدرجة الثالثة إلى الرابعة ، وجاء إلى مجموعة من الناس يقفون بجوار السلالم . وقال « تذاكر » . فأخرج كل منهم النقود بدلا من التذاكر ، وتظاهر المفتش بالغضب وقال : « لماذا تستقلون القطار إذا لم يكن لديكم تذاكر ؟ كيف دخلتم الرصيف من غير

تذاكر ؟ »

أجاب واحد من المجموعة « كل منا أعطى شيئا للرجل الواقف على الباب » .

فلم يجب المفتش ، بل أخذ النقود من أيديهم ، ببساطة ، ودسها فى جيبه . ثم قال بصوت خافت « المرة القادمة تشترون تذاكر . مفهوم ؟ » .

وقف القطار فى محطة صغيرة . فاستقله عدد من الشبان . كلهم عار حتى الوسط . لم يكن من الممكن أن تعرف أنهم من شرطة الاحتلال الإضافية إلا من قلانسهم . وأخذوا يفتشون المسافرين . أخذوا الأرز وأنزلوه إلى الرصيف ، وضربوا الذين كانوا ينقلون الأرز فى القطار . بما فى ذلك النساء .

على أحد المقاعد كان هناك جوال من الأرز . سأل أحد العساكر : « لمن هذا » ؟ كانت يده قد امتدت إليه بالفعل .

جاء أحد رجال الشرطة النظاميين وقال بتعال : « هذا لى .. أتريده ؟ » .

حياه رجل شرطة الاحتلال وقال خجلا : « عفوا ياسيدى .. ظننته لأحد آخر » .

ونزل شرطة الاحتلال جميعا من القطار . كانت جوالات الأرز المصادرة ملقاة فى أكوام على الرصيف همس أحدهم لزميله : « السيد موراكاوا هنا ؟ » .

هز زميله رأسه ، وأفلتت من فمه العريض بضع كلمات بصوت غير مستبين : « سافر إلى بوجور منذ قليل ، لم يعد حتى بعد الظهر ، فلنقسم الأرز خمسة أقسام . ونترك قليلا لنثبت أننا قمنا بعلمنا اليوم » .

عندما كان القطار على وشك التحرك ، تسلقه عربى ، فلما رأى الجمع المحتشد فيه قال : « ماشاء الله » .

وجاء بعد العربى شاب يرتدى قميصا ممزقا ، ساقه اليسرى خشبية . صعد سلالم القطار هو يعرج . لم يكن ثمة مكان له فى الداخل فاضطر إلى التعلق بالقضبان الخارجية .

سأله العربىّ : « إلى أين أنت ذاهب ؟ هل نستطيع أن تتعلق هكذا طويلاً ؟ »

فرد عليه الشاب متأدباً : « حتى جاكارتا ياسيدى . لم يعد هنا من يستطيع أن يعطى صدقة . وربما نزل أحد فى المحطة القادمة فأستطيع الدخول » .

كان القطار ينطلق فى طريقه من جديد . كان رجل الشرطة فى الدرجة الرابعة يحدق طويلا ، إلى امرأة شابة جميلة ، ظهرها محدودب ، اقترب منها ، كدون جوان ، وقال : « عفوا .. كم عمرك ؟ » .

فوجئت المرأة فأجابت : « اثنين وثلاثين . لماذا ؟ » .

- لا شيء .. خسارة .. صغيرة السن هكذا ومع ذلك فقد انحنى ظهرك من الآن » .

مد الشرطى يداه وأجراها على ظهر المرأة : « ولكن ظهرك بديع التكوين » . وبعد أن فكر لحظة قال :

- آه .. هكذا .. هذا أرز .. ! لا أحب أن أرى النساء الشابات الصغيرات السن وظهورهن محنية . ضعى الأرز فى زكيبتى هنا . عندما تصلين إلى جاكارتا سوف أكيله لك وأعطيك نصيبك . لا تقلقى . لن يزعجنا شرطة الاحتلال بعد الآن . » .

ضحك الشرطى . جذبت المرأة جوال الأرز. خجلة، من تحت ثوبها ، ووضعت الأرز فى جوال الشرطى .

عندما اقترب القطار من «بوجور» كان يندفع مسرعا على قضبانه. وفجأة أفلتت قبضة الأعرج المتسبّث بقضبان الباب ، وسقط . جذب أحد المسافرين حبل الخطر ووقف القطار ، وجرى الناس راجعين على القضبان الحديدية ، ولكنه كان ميتا . فتركوا الجثة هناك . وكتب المفتش مذكرة بالحادثة . ومضى القطار فى طريقه .

كان العربى الذى شاهد الحادث كله بعينيه ، قد أخرج منديله ومسح العرق من على جبينه ، بينما راح يقول مرارا بالعربية « استغفر الله . استغفر الله!» .

قال أندونيسى كان يقف بجانب العربى : «أحسن له أن يموت هنا بهذه الطريقة على أن يموت فيما بعد على شاطئ تيجيليونج فى جاكارتا . »

وقف القطار بعد بوجور برهة فى محطة صغيرة أخرى . ونزل المفتش وهرول مسرعا إلى بيت صغير . كان هناك رجل ينتظر فى البيت فما أن رأى المفتش حتى سأله : «كيف الحال ياكريم ؟ هل سار كل شئ على خير؟» .

فأومأ كريم وقال : «بعناه لحسن الحظ ياسيدى . ولكن لم نستطع الحصول على أكثر من مائة وخمسين روبية . وسأحصل منك على نسبة مئوية فيما أرجو» .

فقال الرجل : «هذا ذنبك ياكريم . قلت لك إننى يجب أن أحصل على مائة وخمسين دون خصم . ثلاث دستات أقلام توهينور أصلى ، سعر السوق اليوم ستين روبية للدستة . خذ ، هذه عشر روبيات لك . لا يمكننى أن أعطيك أكثر» .

أخذ كريم النقود وقال : «عندك بضاعة لجاكارتا ؟» .

قال الرجل : «عندي حقن سالفارسان . هل هناك سوق لها فى جاكارتا؟» .

قال كريم : «مطلوب فعلا الآن ياسيدى . كل الشبان فى جاكارتا مرضى بهذا المرض . لكن لا تجعلها غالية جدا» .

عاد كريم إلى القطار ، ومعه عدد من أنابيب السالفارسان .

دخل القطار بعد ذلك بقليل إلى محطة «جامبير» فى جاكارتا . تزاحم الناس وتدافعوا لكى يكونوا أول الخارجين من المبنى .

بجانب المحطة كانت امرأة صغيرة السن تقف وهى تبكى ملتاعة . وعندما سألها أحد المارة : «ماذا حدث؟» أجابت : «الأرز .. هذا العسكرى ذهب ومعه كل ما أحضرت من أرز» .

نظر الناس يمينا ويسارا يبحثون عن شرطى يحمل جوالا من الأرز. لم يكن هناك شرطى على مرأى البصر . استمرت المرأة تبكى حتى نضبت دموعها ، كما كانت قد نضبت مواردها .

مولود فرعون

ولد مولود فرعون فى ٨ مارس ١٩١٣ فى تيزى هيبيل (تيزى حيبل) فى الجزائر لعائلة من الفلاحين حكى حكايتهم فى روايته الشهيرة «ابن الفقير» ، وبعد أن تخرج من مدرسة المعلمين فى الجزائر اشتغل مدرسا فى عدة مدن بالجزائر ومنها العاصمة .

قبض عليه وعذب على أيدى قوات الاحتلال الفرنسى .

هذا الفصل الأول من روايته «الأرض والدم» يمكن أن يُقرأ مستقلا له كيانه الفنى الخاص وإن كان سوف يُثْرَىَ - بالطبع - عندما يندرج فى سياق الرواية .

وله أيضا «الطرق الصاعدة» رواية ، و«أيام القبائل» مقالات . وجمع فرعون قصائد شفاهية منسوبة إلى مهند ، بعنوان «قصائد سى مهند» وكتب يوميات من ١٩٥٥ - ١٩٦٢

مات مقتولاً باثنتى عشرة رصاصة فى ١٤ مارس ١٩٦٢ فى ذروة النضال ضد المستعمر ، ودُفن فى مسقط رأسه .

النزاهة والاستقامة والدعابة والحرارة الإنسانية ، هذه السمات يمكن أن تلخص قيمة العمل الروائى والأدبى لمولود فرعون ، وقيمة حياته ومو ته .

الأرض والدم

مولود فرعون

إن القصة التى سوف تأتى هنا قد عاشها أبطالها حقيقة ، فى ركن من نواحى « القبائل » بالجزائر ، يصل إليه طريق ، وتقوم فيه مدرسة صغيرة ، ومسجد أبيض اللون تلحظه العين من بعيد ، وعدة بيوت يعلوها طابق واحد ، ولا شك أن المرء ينتظر ، فى مثل هذا المسرح العادى المألوف ، أن تدور أحداث الحياة عادية مألوفة ، فما من شىء خارق فى أبطال القصة التى نرويها . (وعلينا أن نلفت نظر القارىء إلى ذلك ، على الفور) . فما أجدرنا بالدهشة إذن عندما نعرف أن إحدى شخصيات هذه القصة باريسية . فكيف يمكن أن نفترض ، فى الواقع ، أن تعيش فرنسية من باريس ، فى قرية « إيجيل نزمان » عيشة العزلة والمنأى البعيد ؟

وعلينا أن نسلم أن القرية مع ذلك لا تفتقر إلى قدر من القبح والكمدة . تصوّر هذه القرية ، مرمياً بها فى أعلى ربوة من الأرض ، كأنها قلنسوة بيضاء تحفها حاشية من أكوام الخضرة . ويتلوى الطريق ، متوقلا إليها عن غير طواعية حتى يصلها .

ويستغرق المرء ساعتين من الزمن يذرع فيها الطريق ، إذا كانت

السيارة قوية متينة الإسار . تجرى السيارة فى أول الأمر على شقة من الطريق ممهدة مرصوفة ، ثم ينتهى الأمر : فقد انتقلنا من محافظة إلى محافظة أخرى . وعليك بعد ذلك أن تخوض التراب أو الطين ، وفقا لما يترتب على حالة ظروف الجو . ثم تصعد ، وتصعد ، وتلف وتدور دورات جنونية على مشارف هوىً سحيقة ، وتتوقف فى الطريق لتلتقط أنفاسك ، وتثبت عجلات سيارتك فى مكانها ، وتملأ خزان البنزين . ثم تصعد بعد ذلك ، وتصعد ماتزال . وفى العادة ، يصل المرء أخيرا ، بعد أن يجتاز المنعطفات التى يحف بها الخطر ، ويمر بالجسور الضيّقة ، ويدخل المرء قرية إيجيل نزمان دخول الظافرين ، فى موجة من الصخب والضجيج .

وعلى هذا النحو حطت تلك الباريسية رحالها فى القرية ، فى ذات يوم بعد الظهر ، فأثارت دوّامة من الانفعال والهياج فى جميع أرجائها .

ومع ذلك فإن هذا الحدث لم يكن يتجاوز مداه غيره من الأحداث الكثيرة التى كانت تقع للقرية من حين إلى حين ، فتوقظ فضول الناس ، على غير انتظار ، وتهز الركود الذى يرين على القرية . أما الأطفال فقد تدافعوا ، أول الأمر ، متزاحمين حول سيارة الأجرة الغريبة ، يلتفّون بها ، ويحيطونها . ثم اصطحب الأطفال الزوجين اللذين نزلا من السيارة ، دون دعوة ودون أن يلقوا بالا للأصول والشكليات ، وتركوا السائق يعود أدراجه ، وقد كان طويل القامة كث اللحية ، يرتدى قلنسوة حمراء كما يرتديها أهلوهم ، وسترة من الجلد . وابتسمت لهم السيدة

الجميلة كأنها ملكة تصغو إليهم بالعطف ، وقالت لزميلها :« انظر ، هاهم أهل القبائل ! » فكأنما كانت تلك دعوة لهم أن يتبعوها ، ويقتفوا خطاها . وكان مظهر السيد مما يليق بمظهر السيدة ويتواءم معه ، فقد كان أنيقا حسن الهندام ، هو أيضا ، وإن كانت بشرته لا تخلو من سمرة ، لم يكن له شارب ، ولم يكن يرتدى شيئا على رأسه ، ولكن الأطفال تعرفوا عليه بمجرد أن التقى بالرجال . جاء أول رجل منهم فقبل رأسه ويده ، وناداه باسمه : عامر أوقاسى ، وقال له أن أمه ستسعد برؤيته وأن من حسن حظها أنها انتظرته قبل أن تموت . كان الرجل يوشك بالكاد أن يستقر ببصره على السيدة ، ومع ذلك فقد ظلت تبتسم . كان واضحا أنها لاتفهم لغة « القبائل » .

ازداد عامر أو قاسى تهيبا وخجلا ، وازداد وجهه تضرجا كلما التقى بأحد ، وكأنما يستميح كل الشيوخ معذرة ، هؤلاء الشيوخ الذين تخلى عنهم منذ زمن لايدرى إلا الله مداه . (أما مع الشباب فقد كان أقرب إلى سجيته) . وفهم الأطفال أن هذا السيد المهيب ليس إلا ابن العجوز كمّومة ، الغائب من زمن بعيد . ومن ثم فقد هبطت منزلته فى أعينهم كثيرا ، وأشفقوا على السيدة الجميلة . وأصبحت نظرتهم أرق وأحنى .

أما الرجال فقد كانوا أقرب إلى الحنق والغضب منهم إلى الدهشة ، إذ رأوا غريبة أجنبية تصل إلى ديارهم ، ومضى الذين مر بهم الموكب الصغير ، فى طريقهم وهم يخفون سخريتهم تحت أجفانهم المسبلة ،

وعلى أطراف شفاههم طية لاتكاد تلحظ من زمة الاستياء والسخط .

وكانت النسوة اللاتى يعبرن الطريق ، بالصدفة ، ينظرن إلى السيدة فى جرأة وتقحم ، ثم يسمعهن المرء وهن يتهامسن ، ويضحكن . أما العجائز فقد كن يعدن أدراجهن ، بعد أن يقبلن عامراً ، ويسعدن زميلته بتحية سابغة . كان فى نيتهن أن يبلغن كمومة بالنبأ ، فأسرعن الخطى ، فى جهد تبذله كل جوانح أجسادهن الضاوية ، فتهتز ملابسهن الرثة الحائلة اللون على السيقان الجافة الذاوية .

كان الزوجان يتقدمان الآن فى حيطة ، فقد كانا يدخلان الشارع الكبير فى القرية ، وإذا لم يكن المرء يستطيع أن يحدس ، على وجه الدقة ، ماتفكر فيه السيدة ، ومم يتأتى تهيبها وخجلها ، ففى الوسع أن نفهم ماكان فيه عامر من حرج ، لم يكن قد فكر فى الرأى العام فى قريته ، وهو الآن يتراجع ، وينكص ، فهو لايريد أن يواجهه مواجهة فيها حسم وصلف . لا .. ! لم يكن مايجعل وجهه يتضرج حمرة أمام امرأته ، مرأى كوم الزبالة التى تقوم الآن فى مواجهتها تماما ، أكمة ضخمة تودع القرية كلها ، عليها ، نفاياتها ، ولا هذا الشارع الفقير الرث الذى لا شكل له ، ضيقا ، موحلا ، مشقق الأرض بالحفر والأخاديد . لم يكن ذلك كله مما يضيق به . ثم إنه كان قد وصف لها ذلك كله ، من قبل . ومع ذلك فهاهو الآن فى مأزق ! يحس عبئا بل لوما وتأنيبا ، مبهم المعالم ، فى كل شىء . هذه المجارى من الماء والطين والردغة التى يضرب لونها

إلى زرقة ، تنحدر من البيوت ، والبراز الذى يتعفن فى الأركان ، والجدران المتهاوية التى تكاد تنقض ، سدت ثغراتها بالحصير ، وهذه الأخصاص والعشش الصغيرة الضيقة القذرة المدخنة ، كانت كلها توحى إليه بحس من الضيق والحنق ينبعث عنها ، لأنه كشف لهذه الأجنبية عن دخيلتها الحميمة التى تدعو للرثاء .

كان الرجل ، والمرأة ، وموكب الأطفال ، يتقدمون جميعا ، ويدخلون دون تردد إلى زقاق مظلم ، فى طريقهم إلى بيت كمومة .

كان بيت كمومة هو نفس البيت الذى ولد فيه عامر ، ومات فيه قاسى منذ عشر سنوات فى غيبة الابن العاق . ولابد أن عامراً قال لنفسه عندما رأى البيت ، لم يتغير فيه شىء ، ازداد البيت قدما ، بلا شك ، قليلا ، لم يعد للباب الذى نخر فيه السوس إلا مصراع واحد ، وينبغى إصلاح ذلك ، وبدأ الحوش الصغير لعينه ضيقا ، شديد القذارة ، وحائط الزريبة يفتقر إلى العناية ، ومع ذلك ينبغى أن يألف ذلك كله ويعتاد عليه ، كان الأقارب ، والعجائز ، يسدون باب البيت . وهو يحاول أن يعرف أمه بين كل هذه الوجوه الجافة الجلود ، فى وسط هذه الكومة من الملابس الكابية اللون المختلطة المعالم . وتقترب أمه ، خجلة ، متهيّبة وسعيدة ، ويجذب إليه رأسها ، ويودعه قبلة .

ويقول ، بالفرنسية :

– هذه أمى .

وتقبل السيدة الغريبة ، بطيش ونزق ، كمومة ، وترد لها العجوز قبلات رنانة ، قبلات كانت تود أن تمنحها ابنها ، وتضحك كمومة ، على سعة فمها الأدرد كله ، سمراء قاتمة البشرة ، مهيبة . مازالت على جفاف عودها ، وطول قامتها ، كما كانت أبدا ، لكن ظهرها قد انحنى ، و هى هشة القوام ، كأنها عود من البوص المشروخ ، وتبدو ندف من شعرها الصوفى تحت وشاحها المشقق ، وعيناها الواسعتان السوداوان قد غشاهما ضباب ندى ، ونظرتها غائمة ، وأجفانها محمرة عارية . وهى تقترب جدا ، بوجهها المغضن ، من وجه السيدة الغريبة ، باسما جميلا ، ولايخيفها ذلك ، وهى تنظر إليها ، تطرف بعينيها ، ثم تتنحى وتتركها للأخريات . وتنتهز النسوة هذه الفرصة السانحة ، ويمسكن بالسيدة الغريبة ، يقبضن عليها ، يعانقنها ، فتتقبّض ملابسها بينهن وتتغضن ، دون أن يلقين إلى ذلك بالا ، ويحدقن إليها فى إعجاب ، ويلاطفنها كأنها « عروسة » ، ولايعطين عامرا إلا قبلة اليد التى تقضى بها العادة ، قبلة متكلفة بعيدة ، يجتاز الرجل عتبه بيته الرث ، ويضع حقيبة كبيرة على حافة المصطبة : سوف تنقضى بقية النهار فى السلام والتحية ، سوف يأتى أهل القرية جميعا لتحيته . تلك هى الأصول . ومامن جدوى فى أن ينفد صبره ، بل على العكس ، إن مايضيق به المرء عندما يعود من السفر أن يجد الكثير من الناس وقد تخلفوا عن زيارته ، ولم يأبهوا بعودته ، ولم يلقوه إلا بالإهمال والإغضاء . ولم لايلقى الإهمال والإغفال ، هو عامر، على وجه الدقة ، وهو الذى لم يفكر قط فى ذويه ؟

أما الآن فها هوذا يتمنى أن يتدفق الناس مقبلين عليه . سوف يبرهن ذلك ، أمام الغريبة ، أن له مكانة واعزازا فى قريته القصية المنزوية . وهو يجلس على مقعد مدور ، مبنى بحيث يلتصق بعمود فى المصطبة ، أمام عنزة صغيرة سوداء تنظر إليه بعينيها الواسعتين الدهشتين ، ويلاطف العنزة الجميلة ، فى حركة آلية ، بيده التى يكسوها الشعر ، وإن كانت نظيفة ، ويفكر ، على الفور ، فيما يمكن أن تسديه من خدمات : ماتدره من لبن ، وماتأتى به من جديان ، ومايتخلف عنها من سماد للحديقة ...

– مازالت أمى تستطيع أن تربى عنزة .. ! لم ينقصها أن تحصل على لبن ، قط ، اذن .. !

وتهوّن تلك الفكرة ، قليلا ، من وقع حسه بالندم ، وكأنها ألهبت فى قلبه نفثة صغيرة من نفثات الارتياح والرضى ، ويصفو وجهه ، على أهبة الابتسام ، وينظر إلى الحوش .

وتهتف به السيدة :

– لا يرضين أن يتركننى .

وهى تلقى بنظرة غائمة غير محدودة ، رغم المخاطر ، إلى داخل البيت المعتم .

– صبرا ، هذه هى العادة ، فليس عندنا مراسيم للتعارف ، نقبل

ونعانق كل الناس دون استثناء .

ولكن نسوة أخريات قد وصلن ، يتبعهن اثنان من الجيران ، وقد جذبت كمومة السيدة الغريبة وتركتها بالقرب من ابنها ، ومضت تجرى ، لتأخذ من على العمود الذى علقت عليه ملاءات السرير ، حصيرة من ليف الدوم ، ألقت عليها ، فى غير نظام بضع أغطية من الصوف المدخن ، ومخدة لاشكل لها . وأجلست السيدة عليها ، فغاصت فيها ، بغير ثقة ولاتمكُّن فى جلستها ، بل فى استسلام ، كأنما غرقت فى كومة من الملابس القذرة .

وقالت كمومة :

- نستطيع الآن أن نستقبل من يجىء ، أيا كان .

* * *

عندما يعود الرجل من « القبائل » إلى جباله بعد غياب طويل ، لايبدو الزمن الذى قضاه بعيدا إلا بمثابة حلم . وقد يكون هذا الحلم طيبا ، أو مزعجا ، ولكنه لايجد أمنا إلى الحقيقة والواقع إلا فى وطنه ، فى بيته ، فى قريته .

والقرية طائفة من البيوت ، والبيوت مبنية من طائفة من الأحجار والتراب والأخشاب . ولا يوشك أن يبدو فى صنعتها من أثر لما قام البنّاء من عمل بسيط ساذج . ولو كانت قد نبتت من تلقاء نفسها ، كما هى ،

على حالها ، الذى تلوح عليه لساكنيها ، لما كان ذلك شيئا من قبيل المعجزات فى هذه الأرض الكنود العصية التى تختلط بها ، هذه الأرض التى يحيا عليها الناس جميعا حياة إلى النبات أقرب ، ثم ينتهى بهم المطاف إلى الرقاد فيها ، تحت لوح من حجر الشست . ومامن مكان هنا يجد المرء فيه عملا من إنجاز الإنسان ، متين الأركان أو سامق الأبعاد ، معقد البنية أو جميل القسمات ، قادرا على أن يتحدى الزمن أو أن يشهد بماض يثير الإعجاب . بل يحس المرء هنا بالجهد القاصر المعزول ، لاكبير ثمرة له ، خشنا وعرا ، يبذله الإنسان بلا أداة أو سلاح فى يديه ، دون أن يكف ، لكى يعيش . ولكن المرء يدرك أيضا أن هذا الجهد المتصل لا يمكن أن يمضى إلى ماوراء الحياة . ومن ثم فإن التراث دائما هزيل رث القوام ، وعلى كل جيل أن يبدأ كل شىء من جديد ، وأن يعمل ويكد لا لشىء إلا لنفسه فقط .

والجانب الأكبر من بيوت ايجيل نزمان ، تلك التى تبدو كأنما تحمل طبقة من القدم والعراقة خلفتها قرون طوال ، بقرميدها المسودّ ، ووصلات الحجر فيها بما بينها من الملاط المتساقط ، وقد فغرت فيها الثغرات أفواهها ، وتهاوت سقوفها من القرميد المنبعج المتلوى ، هذه البيوت التى لم يسكنها فى الغالب إلا جيل الأجداد ، لا أبعد من ذلك ، ويتعين أن يعاد بناؤها من جديد ! وللعائلات التى تواجهها مشكلة إعادة البناء هدف فى الحياة واضح دقيق . ومن الخير دائما ، بمعنى من

المعانى ، أن يكون أمام المرء سبيل عليه أن يختطه فى الحياة . ولكن كل امرئ يجد نفسه مضطرا إلى أن يعيد بناء بيته ، إن آجلا أو عاجلا ، ومن ثم فإن القرية تغير من مظهرها شيئا فشيئا . وتقتفى البيوت الجديدة آثار القديمة منها ، وقد يعيد المرء ، أحيانا ، تنسيق البيت من الداخل ، ولكن إذا لم يحاول أن يتحيف جانبا من حيز الزقاق ، فما من أمل فى أن يزداد داخل البيت اتساعا أو فسحة مكان . فهو مقضى عليه بالبقاء كما هو . وقد تتخذ بعض البيوت المبنية حديثا مظهرا من الزهو والمباهاة ، وقد تقوم بعض المساكن اللطيفة الآتية فى خارج نطاق زحمة البيوت القديمة وتلاصقها . ويؤتى ذلك كله أثرا مريحا إذ يتيح لنا القول ، على الجملة ، أن القرية تكبر وتتسع ، وأن الأحفاد جديرون بالأجداد بل إن طريقة البناء تتحسن . ويستخدم فى البناء خيط التعامد ، بل تحل ألواح الخشب العريضة محل عروق الدردار ذات العقد التى لاتكاد تتخذ موقعها المضبوط ، ويأتى القرميد من المدينة ، ويطلى الباب بألوان زاهية ، وتقوم بعض المداخن ، كأنما على خجل واستحياء ، تغطيها قلنسوات مدببة من القرميد الأحمر .

ويلاحظ عامر أو قاسى ، غداة وصوله ، هذه التغيرات ، بسرور حقيقى ، ذلك أن هذه القرية فى نهاية الأمر هى القرية التى شهدت مولده ، وهى دائما على استعداد أن تفتح ذراعيها مرحبة بابن عاق ، وهو يحس هذا الترحيب به ، هو نفسه ، وهو منذ الآن قد عاد إلى

مدارج صباه ، توثقه بها عرى روابط غامضة لا حصر لها ، تحيطه بشباكها ، روابط من الذكريات الواضحة الدقيقة المعالم تعود إليه صاخبة عالية الضجيج ، ومن الإحساسات الغامضة ، أساسا ، تخلق حوله من جديد جواً له به إلف ومعرفة . وفى كلمة واحدة ، يدرك عامر بوضوح أنه قد عاد من أبناء البلد ، تماما ، دون نقله ولا تدرج . ولكنه ، وهو على هذه الحال ، ترود ذهنه أفكار أخرى . فماذا هو فاعل الآن ؟ سوف يحاسَب بما يحقق من عمل . وسوف يكون عليه وشيكا أن يسلك مسلك أهله وذويه .

سوف تتلبث صفة « الجديد » التى جاء بها ماتتلبث الأعياد والأفراح ، ثم تمضى ، وهو الآن موضع التطلع والفضول فى الجامع أو المقهى ، والكل يريدون أن يتجاذبوا معه أطراف الحديث ، وهم جميعا مؤدبون معه ، يبتسمون له ، وهو يشوقهم . هذا مايلقى الوافدون الجدد من استقبال ، ومع ذلك ، فمن خلال عبارات الترحيب والمجاملة ، والمداعبات ، والاستفسارات الرقيقة المدخل ، تبدو النية على معرفة مايريد الجميع أن يصلوا إلى معرفته ، بنهمٍ وتطلُّع شرِه : هل جاء الوافد معه بمال ، نعم أولا ؟ وهم يجسون نبضه ، ويسبرون غوره ، ويقدرون قيمته ، ويبدون له الود والمحبة ، فى انتظار أن يحسموا مقدار الاحترام الذى سوف يكون من حقه بنسبة ما أتى به معه من مال . أما أكثرهم مكرا وفطنة فقد قر قرارهم وقطعوا فى الأمر ، بناء على ردود فعل يعرفون كيف يستثيرونها .

فذلك الذى يبدو للناس متصنعا ، رقيق الحاشية ، يسبقهم لكى يقبل رؤوسهم ، لم يرجع بشىء من المال ، هذا مؤكد . أما عندما يرون السيد يتقبل الثناء والمجاملات فى حزم وثقة ، ويتحدث إلى الناس بصوت مرتفع ، ويرد على عبارات الحفاوة المغالى فيها عن عمد وتدبر ، بالكلمات العادية المألوفة التى تبتذل فى مثل هذا السياق ، عندئذ يدركون أنه جدير بالاحترام : إنه لم يعد خاوىِ الوفاض ، ومن النادر أن يعتد هنا بالملابس أو مبلغ ضخامة الحقائب التى يعود بها الوافد من فرنسا . ذلك لايعنى شيئا . أما مايحسب له حساب فهو الأوراق المالية التى قد تتوارى تماما فى طوايا سترة علاها القذر أو قميص ناحل النسيج ، وينبغى القول أن الفضول ينتهى دائما إلى إشباع . ذلك أن أولئك الذين يذهبون إلى فرنسا لايعيشون قط على مبعدة : إنهم يقيمون فى الحى نفسه ، ولا يغيب أحدهم عن أبصار الآخرين ، ويعرفون ، بالضبط ، تقريبا ، مالبسه أحدهم ، أو الآخر ، ومايدخره . ويكفى أن يقول من سبقك إلى العودة للبلد مايعرف عنك ، فسوف يعرفه الناس جميعا بعد يومين أو ثلاثة . ثم ينتهى الأمر . تأخذ الملابس الزاهية فى أن تلحقها كمدة ، ويبهت لون الوجنتين ، وتسودّ اليدان . وقد استنفد الناس فضولهم ، ويتخذ المرء مكانه ،بين الأعيان ذوى المكانة والشأن ، أو بين أصحاب رقة الحال وهوان الأمر . وبعد أسبوع يعود المرء فلاحا ، ويذهب إلى الغيط ، على كتفه الفأس ، وفى قدميه الخف ،على حين قد تكون فى معصمه ساعة بأسورة فضية هى آخر آثار حلم قد انتهى .

وهنا تأتى اللحظة التى يخرج المرء فيها نقوده . تستطيع أن تشترى لنفسك أيضا ، أن تتزوج ، أن تقيم وليمة (ولن تعوزك المناسبة) أو أن تبنى بيتا ، إذا كنت قد بلغت هذا القدر من المكانة . ويحس عامر أوقاسى ذلك كله فى الترحيب الذى يلقاه من الناس والأشياء جميعا : هذا الباب الذى نخر ، وهذا الحائط من الطوب الذى يكاد ينقض فى الحوش ، إن البناية القديمة كلها تفصح له بوضوح عن التزاماته الملحة التى لا مهرب منها . أما بقية الالتزامات ، من شراء للأرض أو إقامة للولائم أو غيرها من مظاهر الإبانة عن يسر الحال ، فذلك كله أهون إلحاحا وأقل عجلة .

والحقيقة أن موقف عامر ، فى الحاضر وفى الماضى على السواء ، ليس فيه كبير خفاء . فقد رآه كل مواطنيه الذين يذهبون إلى باريس ، مستقرا ، مع زوجته ، فى فندق من الدرجة الثالثة فى باريس . وقد عرفوا امرأته (بل يعتقد البعض أنها بنت أخت صاحبة الفندق) . عظيم . هاهما قد حطا رحالهما ، كلاهما ، فى ايجيل نزمان . سوف يتغير بهما الحال عما كان عليه فى باريس ، بالتأكيد . ولاشك أن هناك أسبابا قوية تدفعهما إلى ذلك ، ومامن شك أيضا أنهما قد حملا معهما كل مايملكان .

عندما كان فى باريس ، وكان يتفق له أحيانا أن يفكر فى قريته ،

كان يتصور هذه القرية نقطة صغيرة لا أهمية لها ، نائية ، هناك فيما وراء الآفاق الباهره التى تتفتح له ، ركنا مظلما قذرا تغلب عليه شراسة التوحش والهمجية ، تستكين فى أرضه مخلوقات معروفة لاغرابة فيها ، يرثى لها ، يضفى عليها الخيال قبحا يبلغ مدى البشاعة . وهاهوذا الآن بينهم ! والغريب أنه يحس لذلك روحا وراحة وطيبا . إنه قطعا ليس فى بلاد الكوابيس . وهو الآن يدرك تماما أنه كان - هناك - صغيرا جدا ، ضئيل الشأن جدا ! أما هنا فكل شىء ند له على قدر قامته : الرجال والأشياء . يحس أن له أهميته ومكانته ، وأنه قادر على العمل ، على الخلق ، على أن يشغل مكانا ، لماذا نسى قريته ؟ لماذا لم يفكر فى حقوله ، فى بيته ، فى عائلته ؟ لقد نسى الأصدقاء والأعداء ، بل قد اختفى من الذاكرة . دفن الآخرون أباه ، وماعادت أمه تنتظر أوبته . يلوم نفسه لكل ذلك ! ولكن من اليسير أن يبرىء ساحته ، حسبه أن يكون هنا ، وأن يرى ما حواليه . (يعود المرء فتسوقه الأمور هنا ، ويتذوق حياة أهله) هنا ، بكلمة واحدة ، يعود فيجد لقدميه موطئا فى أرض االواقع . إن رجل « القبائل » فى بلاده إنما هو بالضرورة رجل واقعى . وكل الالتزامات التى كان قد خلص نفسه منها . بشراسة ، عند سفره ، تعود فتلقى عليه بشباكها ، من جديد ، كثيرة ، وثيقة ، كما كانت أبدا ، كأنه لم يكن قد خلص منها قط . يعود فيحب ، أو يمقت ، يقتفى أثر الغير أو يحسدهم ، يؤمن بما تمليه عليه واجبات محددة دقيقة ، ويعمل بمقتضاها بإزاء عائلته ، وذوى قرباه ، وهو يعرف هذه الواجبات

بالحدس ، كما لو كانت قد انتقلت إليه بالوراثة ، فهى ضاربة بجذورها راسخة فى أعمق أغوار كيانه .

ويعود عامر أوقاسى فيتيقّن أنه موضع الغيرة ، وأن عائلةً مالا تكنّ له الخير ، وأن عائلة أخرى لاتخلو من الحسد له ، وهى مع ذلك قريبة إليه . ويتذكر الخداع الذى كان ديدنا لخروبة معينة ، والشجاعة التى عرفت بها خروبة أخرى ، هى التى ينتمى إليها على وجه الدقة ، ولم يعد من الأمور التى لايأبه لها أن جاره يسكن بيتا خيرا من داره - وهو لم يكن ينطوى له على الحب قط ، على أى حال - وأن جارا آخر يلقى قدرا أعظم من الاحترام مما يلقى . وتبدأ اللعبة تشوقه : لعبة أن ينشىء لنفسه ، على الفور ، مكانا ومكانة فى ايجيل نزمان . وهو يريده فى موضع الشرف ، هذا المكان !

بدأت طائفة كبيرة من الأفكار التى كانت هاجعة مستكنة فى دخيلته ، تلتطم الآن فى رأسه ، هو يحس كأنما يتيقظ ليستأنف عملا لم يكن قد أنجزه بعد . لم يكن قد أنجزه ؟ بل عليه أن يبدأ هذا العمل من جديد ، على الأصح ! فلم يكن قد فعل شيئا حتى الآن . لقد سافر منذ خمسة عشر عاما . يا إلهى ، نعم ! مثل الآخرين جميعا . كان ذلك ذات صباح فى الربيع ، ولعل ذلك كان فى شهر مارس . ترك كمومة ، وقاسى ، وعيناه مغروقتان بالدموع ، فقد مست كلماتهما قلبه ، كلمات حانية يحدوها الأمل . كان فتيا ، وقوى البنية ، وكان قد تردد على المدرسة ،

ولم يكن متوانيا فى أداء ما يعهد به إليه من عمل . كان باستطاعته أن يتخلى عما اعتاد عليه « القبائليون » من أعمال ، فلم تكن تلك إلا مهانة لاثمرة لها ، ويمضى ليكسب الشىء الكثير فى المصنع . ولم يكن باستطاعة أحد أن يمنعه طويلا ، فقد كان على عجل من أمره ، وهو يهم بالطيران بعيدا . ومن ناحية أخرى كان أبواه على عجل من أن يكون لهما ، هما أيضا هو « غائب » يعولهما . ولكن خابت آمالهما . ومضت الأمور على سنتها ، كأنهما قد فقدا ابنهما الوحيد ، ليس ذلك بالحلم ، عند كمومة ، هذه الفترة العصيبة من الزمن . ومن العسير أن يحملها شىء على نسيانها . وهو يعرف أنها سوف تروى له كل شىء بالتفصيل ، أنها سوف تغفر له ، ولكنها سوف تسلك ، دائما ، مسلك من لم يغفر له شيئا . وقال عامر لنفسه : « لايفوت أوان فعل الخير أبدا » بلا شك . هذا مثل لايعنى الموتى فى شىء . ماذا بوسع الابن العاق أن يفعل الآن لأبيه الراقد فى الجبانة الصغيرة فى تزروت ؟ يزوره هذا الصباح ؟ كانت تلك فكرة أمه على أى حال . واجب يتعين أن يقضيه . وسوف يراه الناس جميعا فى طريقه إلى الجبانة . ولذلك أهميته أيضا ، ذلك أن الأحياء الذين يفكرون فى موتاهم يكون فى وسعهم ألا يعكفوا كثيرا على التفكير فى أمر أنفسهم ، بصفة عامة . فهم إذن فى حال من هدوء البال ، ولا يعوزهم شىء . وتريد كمومة أن ترى ما إذا كان ابنها قادرا على القيام بمثل هذه الإيماءة البليغة التى تظهر للملأ أنه على دراية بالعادات والتقاليد وأنه حريص على الالتزام بها ، وأنه قد عقد

العزم على أن يرتفع إلى ماتتطلبه مكانته من مستوى ، هى بلا شك فى عجلة من أمرها حتى تتيقين من أنه غنى .

وقد كانت تظن أنها خسرته ، ابنها هذا الذى يؤوب إليها فجأة ! أيمكن للمرء أن يقرأ دخيلة قلب كمومة ؟ لعله مامن شىء فى هذا القلب إلا تلك الدهشة السلبية التى لاترتقى حتى إلى درجة المفاجأة أمام حدث يقع على غير انتظار وإن لم يكن على كبير خطر .

ولكن دورها ، فى الوقت الراهن ، هو الدور المريح : أن تنتظر فى بيتها ، أن تمضى فى حياتها كما كان العهد بها ، لاتطالب بشىء ، وهى تعرف أن كل تغيّر يطرأ على وجودها القديم الساذج إنما هو من قبيل الأفضل . وهى لذلك هادئة ، ساكنة الطائر ، مبقية على مظهر الكرامة وعزة النفس .

مرجريت طاووس عمروش

ليست « القصة القصيرة » قالبا نهائيا ، محدد المواصفات ، مسبقاً وإلى الأبد ، شأنها شأن « الرواية » كلاهما جنس أدبي مطواع وطيّع وقابل للتشكل وإعادة التشكل بلا نهاية ، وقابل للاندماج والانصهار – أو التصاهر – على الأقل – مع أجناس أدبية وغير أدبية أخرى .

نجد في هذه الحدوتة تجد مصداقا لذلك – كما سوف نجد فيما بعد في كتابات قصاصين يستلهمون الحكاية الشعبية ، شكلاً أو لغةً أو رؤىً سواء .

ولدت مرجريت عمروش لعائلة من البِرْبِر ، في تونس ، وعلى أنها كتبت بالفرنسية ، فقد تلقت ثقافة أهل أمها فاطمة آيت منصور عبر لغتها الأصلية ، وتقطّرت هذه الثقافة في الحكايات الشعبية والأغاني والشعر ، « إن كل قصائدنا تُغَنَّى ولا تُلقى إلقاء » كما قالت .

نُشرت هذه القصة – الحدوتة في كتاب بعنوان « البذرة السحرية » في العام ١٩٦٦ .

كتبت عمروش روايتين : « الزنبقة السوداء » و « شارع الطبّالين » .

الغيلان السبعة

مرجريت طاووس عمروش

على الله تحلو حكايتى ، وتلف وتدور ، كالخيط الطويل !

كان ياما كان ، فى سالف العصر والزمان ، رجل وامرأته ، ولهما ولد ، يعيشون جميعا فى بلد بعيد . كانا شيخين تقدمت بهما الأيام عندما رزقهما الله بهذا الولد الوحيد . وأسمياه مهندا ، وكانا يعيشان وعيونهما عليه وحده . كان الله فى السماء ، وهو فى الأرض ، إذا شكا من أهون ألم أو توجع مادت الأرض بأبويه ، كانت ترتعد منهما الجوارح لو خطر لهما أنه سيغيب عن أنظارهما . وكانا ليعطياه ، عن طيب خاطر ، كل مافى العالم من أشياء جميلة ، وأشياء طيبة ، لو كان ذلك فى متناول أيديهما ، كانا يقدمان إليه من أطايب الطعام أفضل مما ينال أحد الأمراء الصغار ، ويرعيانه بحبة العين ، ويسهران عليه . لايسمحان للأشرار أن يقتربوا منه . ولا يحتملان أن يرياه يمس شوكة . ورأياه وهو يكبر ويترعرع فى حمى من كل شر أو سوء ، من كل قبح أو خطر لكنه كان ينزع بكل هواه للصيد والطراد .

حتى إذا مابلغ مبلغ الرجال ، راح ينتقل من ساحة إلى ساحة ، ومن غابة إلى غابة ، على كتفه بندقية ، كما يملى عليه هواه . وفى ذات يوم

التقى بصبية بلغ من جمالها أن المرء إذا رآها يسبح بحمد الله الذى خلقها وسواها . كانت بيضاء وردية ، يشع منها النور ، وشعرها الأثيث الوفير يغطيها بالذهب النضار وينسدل عليها حتى الخصر الهضيم ، وبهره ذلك ، وسحره ، فقال لنفسه : « كأننى أرى نور النهار لأول مرة . إن حياتى فيها ، وروحى ! » .

وأخذها من يدها ، وذهب بها إلى أبويه ، وهى عابرة الطريق التى لا يعرفها أحد . وقال لهما :

- هذه هى التى أريد ، أو أموت .

فأجاب أبوه :

- ياولدى ، أعطيتك كل شىء ، وأسلمت إليك كل شىء ، حتى الآن ، أنت أغلى عندى من العالم ومن الحياة ، وأنا أعزك إعزازى للجنة فى السماء ، ولكن هذه الفتاة ، لن أستقبلها فى دارى . تخير لك من تخطب من بنات القرية ، وضع يدك عليها ، لن أنظر إلى مال أوغير مال . أما أن أتركك تتزوج شريدة لقيتها بالصدفة على قارعة الطريق ، ولا نعرف عنها شيئا ، فهذا مالن أقبل أبدا : الشرف يمنعنا ذلك ياولدى ، ولنا اسم كبير !

فأخذها مهند من يدها ، ومضى بها ، دون كلمة . وعندما تقدما على الطريق بضع خطوات قال لها :

- لسنا إلا شخصا واحدا لا ينقسم ، أنت وأنا .

فقد كان يظن أن الفتاة تحبه ، ولم يكن يعرف أنها قد سحرته .

وقطعا شقة طويلة من الطريق ، وتقدمت بهما الخطى إلى خلاء الريف الفسيح وبلغا صومعة تحيط بها البرارى ، ويقطنها حكيم عجوز ، هو صديق للفتى صدوق . ورحب الحكيم بزائريه ، وأكرم وفادتهما بأطيب الطعام ، ودعاهما أن يقيما عنده ماطاب لهما المقام ، وبذلك أتيح له الوقت والفراغ أن يتدبر أمر الفتاة ويطيل فيها التدبر والنظر ، فقد كان عميق الفراسة واسع الفطنة ، كان يطيل التأمل فى شئونها ، لايضن فى ذلك بحفاوة أو اهتمام ، فيدهشه أن قلبه لا يصبو بالميل إليها ، فانتهى من ذلك بأن أسر إلى نفسه : « هى جميلة المظهر ، ولكنها شائهة دميمة الجوهر » وأضمر أن يحذر صديقه الفتى بأسرع مايستطيع .

وانتهز سانحة أن اختلى بصديقه ، ذات صباح ، فى الحديقة ، وقال له :

- قبل أن يفوت الأوان ، افترق عن هذه الفتاة ، لن تستطيع أن تسعدك لأنها لا تحمل فى قلبها الخير ، كيف تجرؤ أن تضحى فى سبيلها بأبويك الشيخين اللذين طالما انتظرا ساعة مولدك ، ولم يرَيَاك تأتى إلى هذا العالم إلا بعد أن رأيا النجوم فى عز الظهر ! الأرض تغص بالنساء .

ولكن مهندا أجاب :

- ليس فى الأرض إمرأة عند من رأى هذه الفتاة !

- على الله ألا تعض بنان الندم !

وبعد أن أخذ مهند وتلك التى يحبها أكثر من نور العين ، حظهما من الراحة فى الصومعة ، ارتحلا عنها ذات صباح ، وراحا يمضيان على وجهيهما فى الطريق لايلويان على شىء ، دون حيود ولا زيغ ، ويطلبان من الأغراب الصدقة والاحسان . يعبران الانهار ، ويرتقيان المرتفعات والآكام ، ويسيران ، ويسيران حتى تخور منهما القوى . وفى النهاية وصلا إلى ناحية من البلاد لايعيش فيها إنسان فقالت الفتاة :

- نال منى التعب كل منال .

وعندئذ ظهر على البعد دخان ، فمد مهند ذراعه نحو الدخان ، وقال لصاحبته .

- لابد أن هناك بيتا .. سنذهب إليه ، ونبيت فيه ليلتنا .

وتقدما إلى البيت بخطى مكدودة ، وكان يحوطه سياج من الأشواك . نادى مهند فخرج على عتبة البيت رجل فارع الطول ، وأدخلهما البيت . وعندئذ رأى مهند ومحبوبته فى كِنّ العتمة ، ستة رجال آخرين يماثلون الرجل فى كل شىء . وذهبت البنت الجميلة إلى غرفة أخرى تستريح . وقال أكبر الأشقاء للفتى :

– سوف أنازلك ، ندا لند ، فى حلْبَه الصراع .

كان مهند خفيف الخطى ومتين البنيان . فصرع خصمه بضربة من رأسه ولكن أحد الآخرين نهض إليه يقول :

– إلىّ ، هـأنذى !

فصرعه مهند بدوره ، كما صرع الآخرين ، واحدا بعد واحد .

كان الأشقاء السبعة مطروحين على الأرض فى غير نظام ، وكان مهند ينظر إليهم ويسائل نفسه عما يفعل بهم ، عندما رأى غطاء حفرة فى الأرض . فأمسك بالحلقة ، وشدها إليه ، فظهرت هوة عميقة الغور . نزل فى الحفرة ، وأدرك على الفور أنه فى بيت الغيلان السبعة ، عندما رأى العظام البشرية متناثرة على الأرض . فأسر إلى نفسه : « أماه .. أماه ! قبل أن يقتلونى ، على أن أقتلهم ! » وأجهز على الغيلان السبعة ورمى جثثهم فى الحفرة ..

وعند مطلع النهار فى الغداة راح مهند يتكشّف أرجاء البيت فوجده مكتظا بالكنوز والثروات ، وراح يتجول فى أنحاء الحديقة ، شطر منها روضة وشطر بستان : وكانت الغابة هناك ، على مقربة ، مليئة بالصيد ، فأحس الفتى بسعادة عميقة وذهب إلى صاحبته الجميلة وقال لها :

– ماأسعد حظنا ، لقد قتلت الغيلان السبعة ، وأصبحت ثروتهم كلها

ملكا لأيدينا : عندنا الجياد ، والبقر ، والمعيز ، والدواجن . انهضى ، فاليوم يوم قراننا .

وعاشا حينا ترفّ عليهما السعادة والرفاهة . وفى ذات يوم ذهب مهند للصيد منذ الصباح الباكر ، وسمعت زوجته مايشبه الأنين الواهن الخفيض . فأصاخت السمع : كان الصوت يأتى من ناحية الحفرة . وشدت حلقة الغطاء ، كان أحد الغيلان السبعة مازال على قيدالحياة ! وكان جريحا . ضمدت المرأة جراحه ، وأطعمته . جلست تؤانسه ولم تغلق عليه غطاء الحفرة إلا قبيل المساء فى الساعة التى اعتاد زوجها فيها أن يعود للبيت .

عاد مهند من الصيد يستخفه الفرح ، فقد كان فى جعبته صيد وفير . لكنه وجد صاحبته محمومة تلازم الفراش . جاء فجلس قريبا إليها ، وقال لها بحنان :

- ماذا بك ؟ ألم أتركك هذا الصباح كالرمانة تفيضين صحة ، وضاحكة مرحة ؟ وأجابت :

- إذا كنت تحبنى ، إذا كنت تحرص على شفائى ، أعطنى التفاحة المسحورة التى تهب صاحبها الشباب الأبدى .

لم يذق الفتى طعم النوم من فرط القلق . وعند الفجر ذهب إلى صديقه ، الحكيم العجوز ، فرحب به قائلا :

– ألـم أقـل لك أن الخـيـر لايمكن أن يـأتيك مـن هذه المرأة السـوداء القلب ؟ كيف يمكن أن يبهرك وجهها حتى الآن ؟ ألا تعرف أنها سوف تقتضيك حياتك نفسها .

وأجاب مهند :

– إذا كنت صديقى ، دلنى أين أحصل على التفاحة المسحورة .

فاكتفى الشيخ بأن يقول :

– فى حديقة « تسيريل » . ولكن حتى لا تلتهمك (الغولة) عليك أن تفاجئها وهى تطحن الحب . سيكون ثدياها ملقى بهما على الكتفين .. أما أنت فعليك أن تلقى بنفسك عليها ، وأن تقبض بيديك على أحد ثدييها وأن ترضعه كالطفل الوليد . فتقول لك وقد استبد بها الغضب : « آه ، لو لم تكن قد رضعت لبنى ، لكنت أكلتك ، وأكلت حتى التراب الذى وطأته بقدميك ! ولكن مادمت قد شربت من لبنى ، فاطلب منى ، تجد طلبك ! » فتطلب منها أن تتركك تقطف التفاحة المسحورة . اذهب وليكن الله فى عون من فقد صوابه بفعل امرأة .

ومضى مهند فى طريقه ، وسار شقة طويلة قبل أن تقع عيناه على حديقة « تسيريل » كان ذلك إبان حر النهار ، وكانت الغولة عارية حتى وسطها ، مغمضة العينين ، ملقية بثدييها على الكتفين ، تطحن القمح ،

وهى تغنى أغنيات فيها شكاة جهمة حزينة . وثب الفتى وأطبق فمه على أحد ثدييها . فصاحت :

- أيها الشقى ! لو لم تكن قد شربت من لبنى لكنت قد أكلتك ، وأكلت حتى التراب الذى وطأته بقدميك ! ولكن ماذا تريد منى الآن ؟

فأجاب مهند :

- ماما - جدتى ! قالوا لى إن عندك فى حديقتك تفاحا مسحورا ، تفاحا يهب الشباب الأبدى للسعداء الذين يذوقون طعمه .

فأفضت العجوز بمهند إلى شجرة وارفة وفيرة بثمار التفاح ، وجنى مهند ملء سلته تفاحا وعاد أدراجه فى طريقه للبيت .

وماكادت امرأته تسمع وقع خطاه حتى أغلقت غطاء الحفرة على الغول ، وذهبت تجرى لترتمى على الفراش . اقترب منها زوجها الفتى بحنان بالغ ، وأعطاها التفاح المسحور فأكلت منه وبدا عليها كأنما تعود إلى الحياة ، مما ألقى بالأمن والاطمئنان فى روح مهند .. وسرعان ماعادت إلى مرحها واستبشارها ، ومازالت بزوجها حتى اقتنع بأن يعود إلى الصيد من الغد . واحتالت عليه بشتى الحيل حتى يذهب إلى الصيد طيلة أيام كثيرة .

كان لايكاد يبتعد عن البيت حتى تثب الزوجة ، مضيئة الوجه ، من فراشها وتسرع إلى الحفرة ، فتخلص الغول منها وتمضى النهار بطوله

فى صحبته ، فلم يكن الغول يعود إلى مخبئه إلا عند مهبط المساء .. ولكنه سرعان ما سئم هذه الحياة ، وازدادت مطالبه الحاحا بعد أن برىء من جراحه . فقال للمرأة ذات صباح .

– سئمت أمن الحياة على هذا النحو ، أتوجس خيفة من كل صوت .. ولابد لنا من أن نرسل بزوجك إلى مكان يستحيل عليه العودة منه . ولا تنسى ، من الغد ، أن تقولى له : « أريد أن تسقينى من ماء أعلى قمم الجليد ، الماء الذى تتقاتل فى سبيل الوصول إليه أعالى الجبال » إن حبه إياك يجنه ، وسوف يدفعه إلى ارتقاء الذرى التى لاتطال ، وهناك سوف تلتهمه النسور .

وعاد الفتى مرة أخرى ليجد زوجته ترتعد فرائصها وتصطك أسنانها . فغام وجهه وقال لها :

– ماذا بك ؟ ألم آتك بالتفاحة المسحورة ، تفاحة الشباب الأبدى ؟ لقد تركتك عندما ذهبت للصيد تفيضين بالصحة والبهجة .

فأجابت دون أن تلتقط أنفاسها :

– لو كنت تحبنى ، لو كنت تحرص على أن ترانى أبتسم وأسير ، فاسقنى من الماء الذى تتقاتل فى سبيل الوصول إليه أعالى الجبال .

عاد مهند إلى صديقه العجوز وقال له ، فى ضيق :

- ها هى ذى تطلب منى الماء الذى تتقاتل فى سبيل الوصول إليه أعالى الجبال !

وفكر الحكيم طويلا قبل أن يجيب :

- صدقنى ، أقسم لك بهذه اللحية التى اشتعلت شيبا ، وبالله العلى العظيم الذى خلقنا وأبرأنا ، أن هذه المرأة تريد أن تقتضيك حياتك ، وسينتهى الأمر بأن تنتزعها منك انتزاعا . ولكنك مادمت تريد أن تموت . فإليك ماتريد :

خذ عِجْلة رضيعة ، أجمل عجلة تستطيع أن تجد . واذبحها على الجبل . ستنقض النسور من السماء لتأكل من لحمها ، وسوف يساعدك أكبر النسور سنا . اذهب ، عسى الله يرد إليك الصواب !

مضى الفتى يبحث عن أوفر العجول لحما وشحما ، واقتادها إلى الجبل وذبحها .. وتوارى خلف شجرة ، فى انتظار النسور ، وسرعان ما رآها تهبط وراح ينظر إليها وهى تأكل . وأكلت النسور ، أكلت كما لم تأكل قط من قبل . فلما شبعت جميعا ، تكلم شيخ النسور وقال :

- لو عرفت من ذا الذى أولم لنا هذه الوليمة ما بخلت عليه بشىء يطلبه .

فأظهر مهند نفسه وقال :

- هأنذى ! أريد أن تذهب بى إلى أعلى قمم الجليد وأن تتيح لى أن أعود بشىء من هذا الماء العجيب الذى تتقاتل فى سبيل الوصول إليه

أعالى الجبال .

فأخذه شيخ النسور تحت جناحه وارتقى به إلى القمة السابعة ،أعظم القمم سموقا وشموخا وأقربها إلى السماء . وانتظر حتى ملأ الفتى جرابه ماء ، وأعاده إلى سفح الشجرة التى وجده عندها .

وعاد مهند أدراجه ، بكل مايسعه من سرعة ، إلى البيت ، وعند هبوط الليل سمعت زوجته وقع خطاه . وهى التى كانت قد قضت النهار بطوله تضحك وتعبث مع الغول . لم يكد يتاح لها الوقت حتى ترتمى على الفراش ، وقالت لنفسها مخيبة الأمل : « وأنا التى شد ماكنت أتمنى ألا أعود فأراه من جديد أبدا » : وشربت الماء الذى تتقاتل فى سبيل الوصول إليه أعالى الجبال ، ولم تعد فرائصها ترتعد . وبدا كأنما انقشعت عنها غاشية الحمى مما أثلج صدر مهند بالبهجة والفرح ، وخيل إليه أنه قد آب إلى السعادة الدائمة والأمن المقيم .. .

وفى ذات صباح عاد الزوج إلى الصيد ، فقال الغول لصاحبته الجميلة :

اسمعى . لقد طال بنا الانتظار . هذه المرة سنرسل مهندا إلى فم الأسد . عندما سيعود زوجك هذاالمساء تصنعى المرض حتى يلوح أنك على شفا الموت ، وقولى له : « حانت ساعتى . ساعتى الأخيرة . ولعله لى ينقذنى إلا شىء من لبن لبؤة فى جراب من جلد شبل معقود بشعرتين

من شارب الأسد » .

أمضى الغول والمرأة يومهما فى سعادة غامرة ، فقد كانا على يقين أنهما سوف يخلصان سراعا من مهند ، وراحا يذرعان أرجاء الحديقة ، فى الشمس ، طول النهار ، ولم يرجعا للبيت إلا ساعة الغداء ، ليتقاسما فطيرة من القمح ذهبية يشع منها النور ويشربا ملء برنيّة من اللبن الحليب . ثم أعدت المرأة العشاء فالتهمه الغول على عجل وقال لصاحبته وهو فى طريقه إلى الحفرة :

– هذه المرة لو أحسنت الحيلة ، واتبعت كل ما أوصيتك به ، فلن يفرقنا بعد اليوم شىء ، صدقينى ، إنه ليشق على أن أنام وحدى كل ليلة فى هذه الحفرة الرطبة المظلمة كالقبور .

وانتظرت المرأة حتى توارى الغول فى الحفرة ثم خلعت ملابسها ورقدت فى الفراش . وما لبث زوجها أن عاد فما أن سمعته حتى أخذت تئنّ وتتوجع وتذرف الدموع . وغاض الدم من وجهه وقال :

– ماذا بك ، ياربى ، ماذا بك ، أى قدر يتربص بنا ويكيد لنا ؟ ما انتهكنا حرمة بيت من بيوت الله وما أظن أن أبوى يلاحقاننى باللعنة ، فإننى أحب إليهما من ذلك ، ولو كنت قد اقترنت بك على غير رضا منهما .

فأجابت من خلال الدموع :

- من الخير لك أن ترضى بأن أموت هذه المرة أمام ناظريك . لن تعود لى الحياة إلا بشىء من لبن لبؤة فى جراب من جلد شبل معقود بشعرتين من شارب الأسد .

فأحس مهند بكل بهجة تغيض من نفسه إلى الأبد .

نهض منذ مطلع الفجر ، وارتقى صهوة جواده ، وانطلق عدوا إلى صديقه الوفى وقال وهو يرزح تحت وطأة مايقول :

- ها هى ذى تطلب افتداء حياتها بلبن لبؤة فى جراب من جلد شبْل معقود بشعرتين من شارب الأسد .

- ألا تدرك أيها الشقى أنها تريدك أن تموت ، ثلاث مرات ، وأنهما اثنان يكيدان لموتك ؟ إلام يمضى ذلك ؟ صدقنى ، إن هناك مايوحى إليها بالمكيدة ، ويقود خطاها .

لكن الفتى قطع كلامه قائلا :

- أريد أن أظهرها ، لآخر مرة ، على مدى مايدخل فى طاقتى ، وعلى مدى ما يذهب إليه حبى ، وأنفذ لها نزوتها ، لآخر مرة .

فلم يلزم الرجل العجوز جانب الإصرار والعناد . وقال :

- ما دام يطيب لك أن تموت من أجلها فتخير لك عنزة سمينة طيبة اللحم ، واذهب بها إلى الغابة . واربطها إلى شجرة ، وسوف

تسمع زئيرا وترى الأسد واللبؤة يهرعان إلى الفريسة . عندئذ تنتهز سانحة أنهما يمزقان أوصالها ، وتتسلل إلى وكرهما ، وتسرق منه شبلين .

راحت العنزة التى اقتادها مهند إلى الغابة ، تثغو وتخور . وسمعها الأسد واللبؤة فأهرعا وهما يزأران . وانتظر الفتى حتى رآهما ينقضان على فريستهما ، ثم انطلق إلى الوكر حيث رأى فيه شبلين عليهما كل معالم الروعة والبهاء ، فأخفى أحدهما تحت قلنسوة البرنس الذى يرتديه ، وقتل الآخر وسلخه .

لم يبق الأسد واللبؤة على شيء من العنزة المنكودة ، وعادا إلى وكرهما راضيين . أما الأسد فقد تمدد على الأرض ، وقد اكتظ بالطعام ، ونام . ولكن اللبؤة ، وهى الأم الرؤوم ، راحت تبحث عن ولديها ، فلم تجد لهما أثرا ، وأخذت تناديهما وتزأر زئير التوجع والشكاة ، وعندما ذهب بكاؤها ونداؤها عبثا ، أظهر الفتى نفسه وهو يمسك بيده جرابا من جلد الماعز . وقال :

– أحد شبليك بين يدى .

فأجابت اللبؤة :

– اطلب ماتريد أجبك إليه ، وردّ علىّ ولدى .

– فاتركينى إذن أن آخذ شيئا من لبنك فى هذا الجراب ، وعليك أن تنتهزى فرصة نوم سيدك وبعلك – الأسد – وانتزعى شعرتين من شاربه واعطنى إياهما .

واطاعته اللبوءة .. تركته يحلب لبنها ، فى إذعان له وتسليم ، ثم اقتربت ، على غاية من المهل والهدوء ، من الأسد ، فانتزعت شعرتين من شاربه الجليل المهيب ، عندئذ كشف الفتى عن الشبل وقدكان يداريه فى قلنسوة البرنس الذى يرتديه ، ورده إلى أمه .

وسارع مهند بالابتعاد ، ولم يتوقف لحظة إلا أن يصب اللبن فى الجراب المصنوع من جلد الشبل . ويعقده بالشعرتين المنزوعتين من شارب الأسد . إلا أنه لم يعد لفوره إلى البيت ، بل توقف عند صومعة صديقه الحكيم . أحس الحكيم بأن الفتى محزون مكروب القلب . فتطوع لصاحبته .

تسللا صامتين جنبا إلى جنب فى الغسق ، ولم يصلا إلى البيت إلا فى فحمة الليل . كان البيت هناك ، خلف سياج من أعواد الند ، ربط مهند وصديقه جواديهما إلى شجرة وعبرا الحديقة دون أن يند عنهما صوت . كان النور ينضح من شقوق خشب الباب . واقتربا من البيت ، ونظر أحدهما بعد الآخر من خلال ثقب المفتاح . وعندئذ رأيا كل شىء ! رأيا الغول والمرأة يجلسان أحدهما فى مواجهة الآخر ، على جانبى طبق هائل ملىء بالكسكسى ، سقى بالمرق القانى الاحمرار وازدان بأجنحة

وأوراك الفراخ وتتوقد حولهما مصابيح كثيرة ، كانت المرأة السوداء القلب قد اتخذت زينتها لهذه الوليمة ، وارتدت ملابس عرسها الباذخة . كانت جبهتها الصغيرة تومض وتلمع ، بصلابة كأنها مرآة ، وكان شعرها المرخى ينسدل فيغطيها بالذهب النضار حتى الخصر الهضيم . وبدا كأنما الغول يشغل حيز المكان جميعا . كان يمس برأسه البشع المسيخ عوارض الخشب فى السقف ، وكان يبدو عليه الرضا العظيم . وكان ضحكه يزلزل الحيطان ، لقد كان الغول وصاحبته الجميلة يحتفلان الليلة بعرس القران . كانا يقولان أحدهما للآخر ، وبين الضحكات : « مهند ، لقد خلصنا منه الأسد ، فى آخر المطاف ، ياما أسعد حظنا ، لقد خلصنا الأسد من مهند » .

وراح الغول والمرأة يضحكان ، ويعبثان ، وسط المصابيح المتقدة وكانا يعدان العدة ليقول أحدهما للآخر ، من جديد ، بين الضحكات : « مهند .. لقد عهدنا به إلى فم الأسد « عندما انفتح الباب فجأة ، وأطاحت ضربة سيف برأس الغول ، وقذفت به مزقا متطايرة ، وعندئذ وقف مهند على عتبه الباب ونظر إلى المرأة وقال بصوت مروع :

– من أجلك تخليت عن أبى وأمى ، من أجلك عرضت نفسى للموت الأكيد وآثرتِ علىّ غولا مسيخا ! فليحق بك مكر الله كما أحاق بى مكرك ، فأنت غير جديره بأن تموتى على يدى .

وترك المرأة مع جراب اللبن وجثة الغول ، وعاد أدراجه مع صديقه إلى طريق الغابة .

حكايتى مثل جدول من الماء . وقد رويتها لكم أيها السادة الكرام .

محمود ماكال

« محمود ماكال » فلاح ، ومدرّس فلاحين . ولد فى ١٩٣٠ بقرية « ضمير شكوى » فى تركيا . وقد اشتغل ناظرا فى مدرسة القرية التى ولد فيها وكتب كتابين « قريتنا » و « من قريتنا » أثارا اهتمام النقاد فى تركيا وفى أوروبا .

وكتاباته تكشف عن شظف حياة القرية التركية ، وطيبةِ قلوب فلاحيها ، طيبه قلوب الفلاحين فى كل قرية ، وضيقِ عيشتهم ، وفيها أيضا أمل وعزم ، ورؤيا صافية حادة لقسوة حقائق هذه الحياة .

هذا أحد فصول كتابه الذى يروى فيه قصة عودته للقرية ، بعد المدرسة .

الغيطان عند الحصاد

محمود ماكال

كان يوليو قد أقبل ، والمحاصيل قد نمت وأوفت على الغاية وكان الشعير يمتد على سعة قبضة اليد ، والشيلم والقمح على سعة ثلاث قبضات . ونحن ، كسائر أهل القرية ، نذهب للغيطان وفى أيدينا المناجل . وفى بعض الأيام يشعر الواحد منا بوسطه مكسوراً من الانحناء على الشغل ، وفى بعض الأيام ، ونحن نقطف الشوفان نشعر بركبنا متخلخلة . وأيدينا طول الوقت تقريبا مغطاة بالجروح والقشف .

وأنا عند عودتى للبيت فى المساء شخص آخر ، فشفتاى جافتان مشققتان وظهرى يوجعنى ، وليس فى يدىّ من فائدة ، فالمنجل قد أدماهما ، أو الأشواك . هذه الأشواك كأنها شعيرات دقيقة نافذة تنمو على نبات يعرف هنا باسم « ذيل الذئب » مغروسة فى كل ثنايا كفى المتورمتين من الجروح ، وأنا أنظر إلى يدى فتذكراننى بأقدام السلحفاة المجعدة .

وقميصى لازق بجلدى ، وشعرى لازق بجبهتى . والمشط يرفض أن ينفذ فى هذه الكتلة الصلبة من الشعر . وفى طراوة المساء يتجمد شعرى كالأسمنت فأقضى نصف ساعة وأنا أنزع الأعشاب من شرابى ومن ثنية بنطلونى ، وعندما تغرب الشمس آخذ طريقى إلى البيت . لماذا

أكذب ؟ اننى خجِل من أن يرانى أولئك الذين ألقاهم على الطريق ، وأنا على هذه الحال ولست أستطيع أن أكف فى نفسى الشعور بالخجل من حالتى التى تقع دون المستوى الإنسانى ، وإن كانوا ليسوا بأحسن حالا منى .. هذا صحيح .

ومع ذلك فإن العمل الذى أنهض به لايلقى كلمة قبول ، فضلا عن التقدير . إنهم يظنون أننى أنزل بمكانتى ، وأحط من قدر نفسى . وأنا إذ أجالد لأقوم بنصيبى من الشغل ، وحدى مع طفلين صغيرين ، يتضجر أبى :

– أنت الآن فى عداد السادة المتعلمين ، لايصح أن تجر نفسك معنا فنحن سنخلّص هذا الشغل ، اليوم أو غداً ، وحدنا .

وفى طريقى أقابل أحد « الأغوات » فيقرّعنى :

– يا محمود أفندى ، يابنى ، حياة الفلاحين وحياة الأفندية شيئان مختلفان لو أننى فقط لقيت أباك ، لقلت له ألا يأخذك معه للغيطان . نحن كنا جالسين ذاك اليوم بالقرب من البركة عند « كافاس » وسمعنا أنك تحصد فى الغيط ، فتكدرنا لأن أباك يجعلك تحس بالصَغار إلى جانب أقرانك .

لكن مايكربنى ، أكثر مايكربنى ، أنهم ينظرون إلىّ كما لو كانوا يقولون : لو أنه ظل يقرأ الكتب مائة عام ، فلن يكون أبداًمن طبقة السادة .

ولم أنس ماقالوه لى عندما رجعت من المدرسة :

– مادمت قد أصبحت متعلما ، فيجب أن تكون مأموراً أو على الأقل عمدة . أما إذا كنت ستظل تحيا نفس الحياة الشقية التى نحياها هنا فى القرية ، فما فائدة المدارس ، يعنى ؟

وأكلنا فى أوقات الحصاد من الكوسة واللفت . وعندما يقترب ميعاد رجوع العربات من الحصاد ، تأتى أختى بهيجة وأم رضوان ، بالغداء . ولم أستطع أبداً أن أعلّمهما أن تغطيا الأكْل فهما تتركانه فى ركن ، جنب الحبوب . وعندما تعود العربة المحملة بالحصاد ، نفك الثيران ونسحبها هى والحمير من مَكَنة الحصاد ، ونهشّها إلى حافة المرعى ، لتستريح ونرقد تحت ظلة العربة حول طبق الكوسة .

وفى كل ركن من أركان الجرن تسمع ضربات المذراة . والتراب أمامنا ووراء نا . وأيدينا ، ووجوهنا ، وأفواهنا ، وأنوفنا كلها تراب فى تراب ، وياليت مايذهب فى بطوننا يكون نظيفاً ، أو على شىء من النظافة ! ولكن كيف يتأتى ذلك ؟ فوق الأكل أيضا رغوة من التراب والقش ، فإذا ماجاء ذكر النظافة على لسانى ، ثار أبى وصاح :

– يمكن الأستاذ مولود فى استنبول ؟ ياخيّ .. الخميرة التى جئت أنت منها معمولة من هذا التراب .. !

وفى مرة جلسنا إلى طعامنا من الكوسة وكان يوجد فوق الكوسة شىء من اللبن الزبادى كان مغلفا بطبقة سوداء من التراب ، فقلت :

- يابا .. أنا أعـرف الزبادى أبيض .. لكن الزبادى الأسـود هذا ، كيف عُمل ياترى ؟

وهو دائما على استعداد أن يشتعل غضبا ، فصاح بى :

- ياخىّ .. ياخىّ ألا تعرف أن الرجل الذى يساوى بصلة حراقة يأكل حشو عربة من التراب فى السنة .. ! وهو عندما لايبلع التراب . لا يشتـغل .. انتظر قليـلا يابنى .. وستـعـرف ، عندما تكبـر ، أحـوال الدنيا .. !

العربة المقلوبة

ليس كل من فى القرية يملك عربة أو ثيرانا لجّرها ، ولذلك فإن من لايملك ثورا أو حمارا يحاول جهده ، أن يشارك واحدا من أصحابها ، فإذا لم تؤتِ جهودُه ثمرة ما بعد أن يشحذ ، ويعرق ، من باب إلى باب ، فإن الشقى يقع ، حقاً ، فى أسوأ حال ولاحيلة له إلا أن يقعد على الأرض ، ويُدير فى ذهنه أسوأ الأفكار حقا .

وفى هذه السنة دخلنا شركة مع « ضيران » .. وكان ضيران زميلى فى الفصل فى المدرسة الإعدادية . وعندما مات والده - ربنا يخلٍّ لك والدك - تبين له أن عليه أن يحتمل مسئولية البيت ، ولم تكن لديه عربة ، ولذلك طلب منا أن نعيره عربتنا .

وفى المساء كان أبى وضيران يعلقان العربة ، ويذهبان للغيطان لتحميلها بالمحصول . وفى الصباح الباكر كنا نأخذ الحمار إلى جرن الدريس أنا ومصطفى وعصمت . فإذا كان فى الجرن قمح كثير ، قضينا الليلة هناك لحراسته .

وكنا نذهب للحقل مرتين فى اليوم فكان أحدنا يسوق العربة بينما ينام الآخر . أما من يسوق بالليل فهو ينام النهار بطوله . وإذا كان أبى قد عاد منهوكا من الشغل يريد أن ينام فى ظل القمح ، كنت أسوق العربة إلى الغيط بدلا منه .

ويالها من طرق تلك التى كنا نسلكها .. ! كان منظر عربة مقلوبة فى الطريق يقلب قلبى فى صدرى كل مرة . فالصخور تقوم هنا وهناك ، والطريق يشتبه على المرء ويختفى تماما فى بعض الأماكن ، وأنت تسوق العربة وعجلاتها مصنوعة من كتل صلبة صماء من الخشب ، لاقضبان فيها ولا حلقات ، تصعد وتنزل بها مرتفعات وعرة هابطة ، وتعبر بها الترع ، والخنادق ، بين الحقل والآخر ، ذلك يكفى لأن يجعل أمّ الواحد منا تبكى بالدمع السخن ، ولذلك كنت أضطر إلى ايقاظ ضيران عندما أبلغ أوعر مواقع الطريق . على أن المرء قد يستطيع أن يدبر أموره عندما تكون العربة خالية ، أما وهى محملة فإن اثنين منا يتعين عليهما أن يسندا جانبها المائل وإلا انقلبت بما فيها . أحدنا يقبض على العريش ، بينما يدفع الآخر ذلك الجزء المثقل بالحمل من العربة ، بكل قواه ، وهذا طيب لكن الأذرع والأكتاف تنخلع . وبعد أن يدفع الواحد منا ، ويزق ويحزق ، ليت العربة لاتنقلب .. ومهما حاولنا فلن ينعدل لهاحال ، مرة واحدة ، طول الطريق . ثم شغلة أن نعد لها بعد أن تنقلب ، ونُرجع الحمولة إلى مكانها . إن هذا ليجعل الواحد منا يتقيأ اللبن الذى شربه من بز أمه .. !

وفى يوم ذهبت أنا وضيران نحمل شعيرا من عند « أقباير » وفى الطريق صادفنا عربة عمى ، بعد أن انقلبت على جنبها . ولست أعرف اسمه على الحقيقة ولكننا نسميه عمى ، ونكتفى . وكانت العربة قد

أقيمت على حيلها ، وأخذ عمي وابنه يحمّلان من جديد ، لكن العريش كان قد انكسر ، وأحد الثورين قد جرح .

فقلت : السلام عليكم ياعمى .

- وعليكم السلام يابن الأخ .

وكانت عينا ابنه ممتلئتين بالدموع . فمسحهما بيديه ، وتخلفت على وجهه طولا وعرضا بقعٌ ملطخة ، وكان أنفه يرتفع وينخفض من وراء العربة .

فقلت : ماذا جرى ياعمى ؟

- كما ترى يابن الأخ ، فليس يخفى عليك الحال . كل شيء واضح للعيان . وكل يوم يقع على دماغنا ، هذه البلدة منحوسة ، والفلاح منا يأكل ، فكأنه يطفح الدردى . لاشيء يبقى فى جوفه ، كأنه نعل مخروق .

لكنه لم يكن يبكى ، هو على الأقل . ثم غير لهجته فجأة ، كما لو كنت سألته لماذا تبكى ياعمى ؟ وأخذ ينشد :

فم الثور يسيل الريق منه

كالفيضان

وأنت إذا بكيت

قالوا عنك مجنون

كان عمى شاعرا ، أو أشبه الناس بالشعراء ، ولكن القوافى ، فى الواقع لتنتظم من تلقاء نفسها ، فى مواجهة مثل هذه العذابات ، هؤلاء الشعراء الذين يعانون الأهوال والعذاب الطويل لم يكونوا ليمنحوا من نبيذ الحب من كأس بلورية ، بل يستلهمون التربة العاقة العنيدة ، ويشربون من سم الحياة فى كأس موحلة سوداء ، واستطرد عمى :

- الثور مريض ، والعريش قد انكسر .

والمتاعب تترى

إن قلبى حزين ..

أفاق ضيران من نومته ، وقال :

- ياالله .. سنتأخر ، زُقّ .. ألم تر عمى أبداً من قبل ؟ هو دائما على هذه الحال .. وليس الآن وقت سماع أحزانه .

وسرنا فى طريقنا . لكن العربة ساخت بنا ، واندلقت حزم الحَب إلى الأرض ، وعندما حمّلناها مرة أخرى ، فلا شك أن ضيران لم يعن برصها كما ينبغى فقد اندلقت مرة ثانية . ولم يكن فى الحب كبير فائدة الآن ، فقد تناثر معظمه من الشد والجذب وسقط من أعواده . ونزلنا على الأرض يرفع الواحد منا طرف العربة ، وحملناها على أكتافنا بينما الثور يجرها ، طول الطريق . وعندما عدنا إلى القرية ، لم يعد فينا نحن أيضا كبير فائدة .. لكن عمى مازال منتظرا على الطريق . وكان هناك عريش جديد فى الطريق إليه من القرية .

أمي ... في رمضان

جاء شهر رمضان . وكانت أمى ، وهى صائمة ، قد اشتركت معنا فى الحصاد وهى تقول : ربنا يقوّينى .

وأمى جافة مقددة مشققة من الداخل والخارج معا ، وكنت إذ أرقبها وهى تكد حتى المساء ، يجف قلبى ويتشقق مرتين .

وإذا لم يغب عن البال أن معظم المشتغلين بالحصاد كانوا صائمين فقد كانت سنة طيبة ، لم يَمُت من العطش ، بجانب حزم الحبوب المكومة ، إلا صبىّ واحد .

أما الأطفال فلهم حكاية أخرى ، وبينما كان آباؤهم وأمهاتهم يشتغلون بمناجلهم فى الغيطان ، كان الموت يحصد الأطفال بلا رحمة . كنا نفقد ، فى كل يوم ، صغيرا أو اثنين من البلد ، وكان عدد من مات من الأطفال ، فى أسبوعين ، اثنين وعشرين .

وإذا طلبنا من أمى شيئاً ما ، قطعت علينا السبيل بقولها : « هل لدى ميل للكلام .. أنا ؟ » لكنها فى نفس الوقت لاتنقطع عن التمتمة بالتسابيح . كان الشيوخ عندما يأتون فى الشتاء يملأون الغرفة بالصخب والضجة ، وكانت النسوة تقف على الباب ينتفضن ، ويحاولن أن يحفظن مايقول الشيوخ ، فيظهر أن حفظ هذه الأشياء ، أو حتى مجرد الاستماع إليها ، أمرٌ حميد ، عليه ثواب .

وقلت لها :

- طيب يامّه .. ألا يتعبك أن تزيدى وتعيدى من هذه التسابيح التى لا تخلُص ؟

- وهل هذا كل مايتعب الواحد منه يابنى ؟ وكيف أحتمل الحر إذا لم أردد اسم الله واسم النبى ؟ ومن بركة هذه الأسماء الفضلى أننى لا أموت فى مكانى هنا من العطش والجوع .

يقع ينبوع الماء بالقرب من البلد ، على بُعد ساعة من الغيط ، وكنا قد أتينا بقلّة أو قلتين من ماء الشرب ، ولكن أمى أخذت تسكب الماء على قدميها الملتهبتين المشققتين وعلى رأسها وعلى صدرها ، وكثيرا ماكانت تذهب تشحذ الماء من الغيطان المجاورة .

وتمزق باطن قدميها مِزَعاً مِزَعاً ، فاشترينا لها حذاء ، سواء كان متينا أم رديئا فهو خير من لاشيء ، ولكنها قالت :

- من ذا الذى يريد أن يحمل حذاء ويجره وراءه ؟

ذهبت لأكتب هذه السطور بعد أن عزقت تحت كرمة العنب فى الجنينة وقد كان العرق يتصبب منى تحت الشمس . كان المحصول قد نضج ، وأبى وحده ، ولم أكن أملك من نفسى إلا أن أساعده ولكننى عند طرف الجنينة آخذُ ورقى وكتابى وأبتعد .

أمى ، وأنا ، شأننا فى ذلك شأن سائر أهل القرية ، قد ذهبنا لنقطع

البطيخ من الأرض ، والحـر يُدير الرأس ، ويدوّخ . ولم أعـد أطيق ، فذهبت ألتمس الظل ، ووضعت رأسى فى الظل الهيّن المبرقش تحت أعواد القمح الهزيلة .

ورقدت لأكتب وأنا أسمع صوت أمى :

عندما جاءت الثلوج تحت التلال

أتُراك لم تحس البرد ؟

أتُراك ظننت الحر لن يعود ؟

وماالفائدة ياأمى ، وأنا لم يُدر بظنى أن الحر لن يعود ، ماالفائدة ؟

لم يعد فى القرية أحد ، ولكلٍ شُغلته ، منكبٌ عليها ، فهل أتخلف ، أنا وحدى ؟ ولم يعد يطيق الحر إلا النسوة اللاتى كن يذهبن من حين لآخر يغسلن أقدامهن فى مجرى الماء الضحل الصغير .

ويمتد السهل المعشوشب ، أربْدَ هائل اللون ، إلى أبعد ماتبلغ العين ، وقطعان البهائم الجوعانة تشق طريقها بين الروث ، راجعة إلى القرية للحليب ، إن كان فى ضروعها شىء جدير باسم الحليب .

هاهو المساء وقد عدنا للبيت ، وغداً نذهب لتقليع الحشائش ، هذه أيضا شغلة يتحتم أن تتم . وعجلة القدر التى تحكم مصائرنا تدور ، وتدور ، كما كان دأبها أن تدور منذ ألف سنة .

لو أن لقلمى قوة بوسعها أن تروى هذه الحقائق : أين هم فنانونا ؟ ينبغى لأعينهم أن تصوّر هذه المشاهد . فأى روائع لعلّها إذن تولد من هذا العَرَق الذى يسيل كالفيضانات . حاول « يعقوب قدرى » فى كتابه « الغريب » أن يضع إصبعه على هذه الحقائق فى عيشة الفلاحين فانطلقت عليه زبانية الجحيم ، وانطلقت عليه الصيحات هذه « فضيحة للقرية التركية » .

إن أولئك الذين مازالوا يفكرون فى القرية التركية بعبارات : « هو ذا الراعى يعزف على شبّابته . ما أحلى عيشة الفلاح » أولئك لا يعرفون هذه البلدة .

وطالما لم نعجن حياتنا بهذه الحقائق ، فأقل مانستطيع أن نكفّ عن الزعم بأننا نعرف القرية ، وبأن فى إمكاننا أن نتكلم باسم قضية الفلاحين .

إيفان شانكار

« إيفان شانكار » كاتب يوغسلافى توفى فى ١٩١٨ وكان قد قضى طفولته فى فقر مدقع ، ثم حصل على بعثة لدراسة الهندسة فى فيينا ، ولكنه ترك الهندسة للكتابة ، وضع ديوانا من الشعر ، ومجموعتين من القصص القصيرة ، وترجمةً لحياته لم يكملها ، وهذه القصة من مجموعة « حكايات من أحلامى » ..

فى قصته حنان عذب وفهم نافذ لنزوعات الطفولة وبساطتها الرائعة المثيرة للحب ، وشاعرية واضحة رقيقة ، ومحبة للسلام غامرة مرهَفة معذَّبة ، تحفزنا - من غير كلمة خطابية أو دعائيةٍ واحدة - إلى أن نمقت كل عدوان ، ونتقدم للدفاع عن كل ما تمثله الطفولة والمحبة والسلام .

ما أوقع مثل هذه القصة الآن ، بينما تدور مذابح غير مسبوقة ، فى البوسنة أو بوروندى أو العرق ، فى قلب تجاهلِ ، وصمتِ ، وتخاذلِ « الحضارة » الغربية ، يعنى القشرة المسيطرة الحاكمة من هذه « الحضارة » .

الأطفال والعجائز

إيفان شانكار

كان الأطفال يثرثرون معا ، كل ليلة ، قبل إيوائهم إلى الفراش .

كانوا يحكون عن كل مايخطر لهم ببال . لكن مايخطر ببالهم حكايات بهيجة ، حكايات من نور الشمس والدفء ، منسوجة بالحب والأمل .

وفى هذا المساء جاء شىء غير معروف من مكان غير معروف ، ومد يده الضاربة العنيفة ، فى نور السماء ، وخبط من غير رحمة فى وسط الإجازات والحكايات والحواديت فقد جاءهم بالبريد أن أباهم قد « سقط » فى الأراضى الإيطالية ، وقام أمامهم شىء غير معروف ، جديد ، غريب ، غير مفهوم البتة ووقف هناك ، طويلا عريضا ، من غير وجه ، ولا عينين ، ولا فم له ، فلم يكن له ثم مكان ، لا فى الحياة الصاخبة أمام الكنيسة فى الشارع ، ولا فى غبشة المساء الدافىء ، حول الفرن ، ولا فى الحكايات .

لم يكن شيئا بهيجا ، لكنه لم يكن شيئا أسيفا بوجه خاص ، لأنه شىء ميت ، لأنه ليس له عينان تبدو فيهما أسئلة ، ولأنه ليس له فم يشرح به ، ووقف الفكر خجولا متواضعا أمام هذا الشبح الهائل كما يقف أمام حائط ضخم أسود ، لا حراك به ، يقترب من الحائط ويحدق فيه مخرسا مثقلا .

وتساءل تونشيك في عجب · ومتى سيرجع ؟ ..

فلكزته لويزكا ، وهى تصوب إليه نظرة غضبى · كيف يرجع إذا كان قد سقط ؟ وصاح ماتيسن ، وله من العمر سبع سنوات ، فجأة ، كما لو كان قد وقع بسرعة حادة ، على الفكرة الصائبة : أنا ذاهب للحرب ، أنا أيضا ! ..

وكان من الواضح عنده أن ذلك كل مايلزم أن يقال .

فوبخه تونشيك ذو الأعوام الأربعة بصوت أجش عميق :

– أنت أصغر من أن تذهب .

كان تونشيك يرتدى فساتين البنات ! ..

أما ميلكا ، أصغرهم وأكثرهم اعتلالا فقد كانت ملتفة بشال أمها الكبير ، وكانت تشبه طردا ملفوفا لمسافر على عرض الطريق ، فسألت بصوتها الناعم الصغير ، من بين الظلال : ماشكل الحرب ؟ قل لنا ياماتيسن ، قل لنا الحكاية ! ..

فأخذ ماتيسن يشرح انظرى . الحرب هكذا .. يطعن الناس بعضهم بعضاً بالسيوف ، ويضربون بعضهم بالنار ، وكلما ضربت وطعنت أكثر ، كان أحسن .. ولا أحد يقول لك شيئا .. لأنه هكذا .. هذه هى الحرب .

ولكن ميلكا تصر وتلح : ولكن لماذا يطعنون ويقطعون بعضهم ؟..

فقال ماتيسن : من أجل الامبراطور!

وسكت الجميع .

وبعدئذ جمع ماتيسن شتات أفكاره بسرعة ، ولعل ذلك لم يكن إلا ليشتت الصمت الذى جثم ثقيلا عليهم ، وقال :

– أنا أيضا ذاهب للحرب ، ضد العدو ، وفجأة طلع صوت مليكا متسائلا : وماشكل العدو ؟ .. له قرون ؟ ..

فأجاب تونشيك ، بلهجة التأكيد ، وبجد ، بل وهو يوشك أن يكون غضبان :

– طبعا له قرون ، وإلا كيف يصبح عدوا ؟ ..

والآن لم يعد حتى ماتيسن نفسه يعرف الإجابة الصحيحة ، ولكنه قال ببطء وتردد :

– لا أظن أن له .. له قرون ! ..

وقالت لويزكا ، غصبا عنها : كيف يمكن أن يكون له قرون ..إنه بنى آدم مثلنا .

ثم أعادت النظر فى المسألة . وقالت : لكن ليس له روح ! ..

وبعد صمتٍ متطاول تساءل تونشيك : كيف يسقط الإنسان ، فى الحرب ؟ .. هل يسقط إلى الخلف .

وأوضح سؤاله عمليا .

فأجاب ماتيسن ، بهدوء : إنهم يقتلونه حتى يموت .

– كان أبى وعدنى أن يحضر لى بندقية .

فردت لويزكا بخشونة : كيف يحضر لك بندقية إذا كان قد سقط ؟

– هل قتلوه ، حتى الموت ؟ ..

– حتى الموت ؟ ..

وفى الأعين الواسعة الصبية كان الصمت والأسى يحدقان فى الظلام ، فى شىء غيرمعروف ، لايدركه القلب ولا الفهم .

وفى نفس اللحظة كان الجد والجدة يجلسان على مقعد طويل أمام الكوخ ، كانت أشعة الشمس الأخيرة الحمراء تتوهج فى أوراق الحديقة المعتمة ، وكان المساء صامتا إلا من شهيق بكاء طويل مكتوم ، وقد استحال الآن مبحوحا أجش ، يأتى من الاسطبل ، فلعله على الأرجح انتحاب الأم الصغيرة التى كانت قد ذهبت إلى الأسطبل لتراعى البهائم .

جلس العجوزان ، محنيّيْن جدا ، قريبين من أحدهما الآخر ، وتماسكا بالأيدى كما لم يتماسكا منذ أمد طويل ، كانا يحدقان فى وهج الشفق السماوى ، بأعين فرغت منها الدموع ، ولم ينبسا بكلمة .

الكسندرو ساهيا

مات الكسندرو ساهيا عن تسعة وعشرين عاما فقط فى أغسطس ١٩٣٧ ، لم يخلف آثاراً كثيرة ، لكنه كما نرى فى هذه القصة كاتب دقيق الملاحظة ، وثيق الصلة بالناس .

ولد بعائلة من الفلاحين فى قرية اسمها ماناستيريا فى رومانيا ، وتعلم القراءة والكتابة قبل الحرب ، وقبل أن تصبح رومانيا « اشتراكية » ، فى ظل ظروف قاسية لعل معظم كتابنا وقرائنا من الفلاحين قد عرفوا مثلها قبل ثورة ١٩٥٢ فى مصر ، مثلاً ، ثم بدأ دراسته فى الكلية الحربية فى كرايوفا ، وتوقف عن الدراسة ، تحت ضغط الظروف المادية المألوفة فى مثل هذه الأحوال ، ثم استأنف دراسته بعد ذلك فى كلية سافا القومية فى بوخارست .

وكما لا أنى أقول ، هل من أهمية حقا لهذه التفصيلات ؟

أم أن كل الأهمية فى ومضة التواصل الانسانى الحميم – عبر فجوات السنين واختلافات الثقافات ونأى الشُّقة بين اللغات ؟

أليس « بالع السيوف » هذا ممن عرفناه كلنا – أو معظمنا – فى طفولتنا ، فى ساحات السيرك أو الموالد ؟ أليست تضحيته بنفسه ، فى سبيل كرامةٍ ما ، مما يهز مشاعرنا ، أياً كان اسمه ، وموقع سقوطه ؟ وهو سقوطٌ عظيم مهما بدا صغيراً .

موت بالع السيوف

ألكسندروساهيا

كانت العربة المغطاة تزحف في بطء وتعثر ، تهتز عجلاتها على الطرق المتربة بين القرى ، وكان الحصان الضخم الأرمد ، وقد برزت أضلاعه الناحلة من جنبيه ، وسالت الدموع من عينيه ، يخبط في لجامه المرقع ، على الطريق ، دون حياة .

كانت تلك عربة ميهائيل جيرلاش ، المشعوذ الذى مافتىء ، يدخل البهجة على قلوب الفلاحين فى القرى .

وما إن لاح جيرلاش على رأس الزقاق حتى ذاع الخبر كالبرق : جاء جيرلاش ، المشعوذ جاء .. !

واندفع الأولاد ، من كل جانب ، وقد انقطعت أنفاسهم من الجرى ، لكى يلاقوه قبل أن يصل ، وهم يتصايحون حول عربته ، حتى وصلت العربة إلى القرية .

وظهر جيرلاش من تحت غطاء العربة ، وقد تقوست كتفاه العريضتان ووجهه مجعد عجوز .

وخلع قبعته فى استحياء ، وانحنى يحيى جمهوره .

واستبد الفرح بالأولاد ، وراحوا يهتفون : أهلا جيرلاش .. دعنا نرى سيوفك .. دعنا نراها .. !

وابتسم البهلوان ابتسامة حلوة ، ودخل بين صفوف الأولاد ، وهو يخطو محاذرا فى حرص ، حتى لا يصطدم بهم ، وأخذ قبضة من التبن ، من مؤخرة عربته ، وقدمها للحصان وهو يربت على عينيه النديتين .

وكان الناس يقبلون عليه .

وسرعان ما اجتمعت عليه القرية كلها ، ولحظ جيرلاش ، لهفة جمهوره ، فبدأ على الفور يقوم بألعابه .

لم يكن هناك ثم مسرح ، فصعد على كرسى ، وأخذ يبلع الزجاج ، ويخرج من أنفه شرائط ملونة طويلة ، وأقراطاً ، وبيضاً ، ونقوداً . وأشار بيديه السحريتين ، فظهرت فى قبعته القديمة المهترئة حمامتان بيضاوان .

كان الفلاحون فى غمرة السعادة ، كانوا يصفقون له بكل قواهم ، ويصيحون بأعلى أصواتهم : برافو .. برافو .. جيرلاش .. برافو أيها العجوز .. !

وفى نهاية ألعابه سوف يبلع جيرلاش تلك السيوف الثلاثة ، آخر لعبة فى برنامجه ، وأبلغها أثراً فى الجمهور .

وما أن يستل من حزامه السيوف البراقة ، وهى تومض فى ضوء الشمس ، حتى يهبط سكون تام على الفلاحين ، ويحبسوا أنفاسهم ، وهم يرقبون فى قلق كل حركة من حركاته .

ويبدأ جيرلاش بأن يلوّح بسيوفه فى الهواء فتصلصل فوق رؤوس الفلاحين ثم يبلعها ، واحدا بعد واحد . ويولج آخر سيف فى فمه ، وقد انفتح كما لو كان يتثاءب ، فاغراً فاه على سعته ، ثم ينحنى إلى الأمام ، ويمد ذراعيه إلى جنبيه ، فيبدو وكأنه صليب ثقيل الرأس ، ويبقى عدة دقائق على هذا الوضع ، مصلوبا فى الهواء .

وفى نهاية اللعبة يقذف الفلاحون بقطع صغيرة من النقود فى القبعة السحرية كل منهم وفقا لكرمه ، ووفقا لما فى جيبه .

لم تكن حياة جيرلاش قد مضت كلها على هذا النمط . ومنذ عشر سنوات أو نحوها كان ينافس أعظم اللاعبين فى العالم . وكان مديرو السيرك يعرضون عليه أجورا خيالية . وعلى جدران العواصم الكبرى كلها كانت صورته تحتل الإعلانات ، وقد تضخمت حتى جاوزت كل حدود الإمكان . ولم يكن يراوده القلق على أيام شيخوخته أبدا ، فقد كان بوهيمى المزاج .

ومرت السنوات ، وخلفته قليل الحيل ، وقد أثقلت عليه العلة .

وإذا هو فجأة ، ذات يوم ، عجوز ، فقير ، ووحيد ، ولم يعد ثَمّ من يهتم الآن بشرائطه الملونة ، وحماماته البيضاء . أما سيوفه الثلاثة التى يبلعها حتى المقبض فقد كانت تلك لعبة تثير اشمئزاز الجمهور المرهف الحس فى الخارج . ولذلك عاد إلى الوطن .

ورحبت به بلدان الريف وقراه ، فى حماس ،، وبدأت له أيام مجد جديدة . ولكن المجد كان رخيصا الآن ، مبتذلا ، بلا ثمرة . كان يقوم بألعابه فى الهواء الطلق ، إلى جوار حصانه المكدود وعربته المغطاة . ولم تكن هناك إعلانات تسبق وصوله . كان عليه أن يكسب لقمة العيش .

وقد توقف منذ بضعة أيام فى قرية قريبة للمرة الأولى . لذلك اجتمع عليه ذلك العدد الكبير من الفلاحين ، فقد تناهت إليهم الأخبار عن ألعابه المعجزة فأقبلوا الآن يرون بأعينهم .

صعد جيرلاش على كرسيه القديم وارتفع فرق رؤوس الفلاحين ، وبدأ لعبته . كان يخامره حس بالسعادة . فلم يكن قد قوبل بمثل هذا الحماس منذ أن بدء تجواله فى القرى ، وذكّره ذلك بلحظاته المجيدة الباهرة ، وحفلات السيرك العظيمة فى العواصم الغربية ، ثم ركز اهتمامه فى لعبته .

وكان الجمع المحتشد يهتف له ، منذ البداية : عظيم ياولد ..عظيم ،.. برافو جيرلاش .. أيها العجوز !

وبلغ بهم الحماس مداه عندما شهر سيوفه الثلاثة فى ضوء الشمس ، ثم اختفت السيوف فى حلق اللاعب ، وانفجر التصفيق من جديد .

وارتفعت صيحة خشنة ، فجأة ، فسيطرت على الجمهور .

– كداب .. غشاش .. ليست سيوفه حقيقية .. طيب يبلع هذا السونكى . إذا كان يريدنا أن نصدقه .. !

– صحيح .. مضبوط .. يبلع سونكى الريّس .. إنه يسرقنا .. جيرلاش لص غشاش .. !

ووراح مئات الفلاحين يجأرون بثورتهم على اللاعب ، وجندى القرية يختال بين الجمع متجها إلى الكرسى الذى يقف عليه جيرلاش .

– ميهائيل جيرلاش .. اسمع .. إذا كنت تريد أن نصدقك .. ابلع السونكى لاتلك القطع من السلك القديم .. لقد شاهدت أنا أمثالك يسرقون الناس .. ولكنى هنا أمثل السلطات ولن أسمح لك بأن تغش الناس الطيبين .

– مضبوط .. هذا الغشاش .. ليس عنده حياء .. هذا المهرج العجوز الكذاب ..

والصرخات والصفير تعلو وتحتدم ، وتقترب من جيرلاش ، فى ثورة عارمة .

وألقى اللاعب بنظرة ذاهلة إلى البحر المتلاطم من رؤوس الفلاحين . لم يقع أبدا فى مثل هذا المأزق من قبل . لماذا يشتمونه ؟ أيهم يستطيع أن يبلع سيوفه من هؤلاء الذين يتهمونه ؟ أيستطيع الجندى أن يبلعها ؟ لا بالتأكيد .. هل يتحداهم إذن .. هل يعطيهم السيوف يلمسونها ويتحققونها ..من فيهم يجرؤ أن يبلعها .. ؟

وحتى حصانه بدت عليه الدهشة ، وقامت أذناه منتصبتين .

ورفع اللاعب ذراعيه أخيرا ، وفي يده اليمنى سيوفه الثلاثة :

– هذه سيوف .. سيوف فعلا .. خذوها فى أيديكم وتحققوا منها .. أربعين سنة وأنا أدفعها فى حلقى .. لم أغش أحداً قط .. إننى شريف .

ومد السيوف للناس ، لكنهم لم يكونوا ليصغوا إليه الآن ، لم يشأ واحد منهم أن يلمس السيوف ، فظلت معلقة فى الهواء ، فوق رؤوسهم .

وأجاب الجندى :

– سيوفك هذه لاتهمنا .. نريدك أن تبلع السونكى .. وعندئذ نصدقك .

وتصايح الجمهور من جديد :

– مضبوط .. يبلع السونكى ..غشنا اللص .. نهب فلوسنا ..

وأدرك جيرلاش أن حياته كلها في الميزان ، وشهرة عشرات السنين تتعرض للضياع فى محنة حاسمة نهائية . فدفع السيوف فى حزامه ، هذه السيوف التى استطارت شهرتها فى العالم كله ، وأخذ السونكى من الجندى ، بيد مرتعشة .

وشهر السونكى فى الهواء ، فى غير ثقة ، فلم يلمع فى الشمس .. وكان على السونكى زيت ، فمسحه بكمّه .

وابتسم الجندى بسخرية ، وانتظر الحشد المجتمع ، وقد أخذته حيرة .

ولاح أن اللاعب يترنح على كرسيه . أخذ السونكى بين أصبعين ، ويدأ يجربه داخل حلقة .

بلع نصفه ، ثم جذبه خارج فمه بسرعة ، ومسحه مرة ثانية على كمه ، ودفعه فى حلقه ، حتى النهاية .

ولم يبق خارج فمه إلا المقبض ، وشرائط الزر الأصفر تهتز على ذقنه .

ومد ذراعيه ، فبدا كالصليب ، وارتعش كطير مضروب ، يجهد أن يطير .

وانفجر التصفيق العاصف ، وهتف الفلاحون كأنهم مجانين :

- برافو جيرلاش .. يعيش جيرلاش .. يعيش .. يعيش .. !

وأمسك جيرلاش بمقبض السونكى ، فى حركة اليأس ، وفى اللحظة التى جذبه فيها إلى الخارج انبثق تيار من الدم من حلقه .

وأراد أن يتكلم ، وتلعثم فى ضعف يثير الرثاء ، ثم سقط اللاعب بالقرب من السونكى ، إلى جوار مسرحه . ومسرحه كرسى صغير قديم .

الكسندر فلاهوتسا

لم أعد أذكر مَنْ هو ألكسندر فلاهوتسا ، أين وقعتُ على هذه لقصة ، ومتى ترجمتُها . هل كان ذلك فى أثناء عملى فيما كان يعرف بالمفوضية الرومانية فى القاهرة ، فى ١٩٥٦ ؟ أم بعد ذلك ؟

« الحساب » صورة قاتمة لحياة فلاح من رومانيا ، ولكن كأننى عرفتُها فى أواخر الثلاثينيات وأوائل الأربعينيات من هذا القرن العشرين ، عندما كنت فى « الطرّانة » قرية جدتى ، ورأيت كيف كان الفلاحون يعيشون ، صحيحٌ أننى لم أجد مِثل المالك الكبير ، لأن « الطرانة » لم يكن فيها اقطاعيون كبار ، ولكنى عايشت ضنك فقراء الفلاحين ، ولم أنسه حتى الآن ، هل كان ذلك هو حقاً ما حفزنى إلى ترجمة هذه القصة فى الخمسينيات ؟

الحساب

ألكسندر فلاهوتسا

ذهب « يون » إلى قصر المالك الكبير ، وهو يتمتم لنفسه بالتذمر والتسخط فسوف يذهب ليلتقى بالمالك الكبير مرة أخرى ، ويرجوه ، فى حُسن أدب ، أن يتفضل فينوّره ، ويفهّمه ، لأن رأسه ناشفة ، والمسألة لا تدخل له فى دماغ ، أبدا ، فكيف حصل أنه يستحيل عليه أن يخلّص نفسه من السلفة التى اندبّ فيها من ثلاث سنين ، عندما راح يطلب من قصر المالك الكبير « أربعين ليى » سلُفة ، وثلاث كيلات ذرة يسند بها نفسه لغاية الشتاء . والحكاية هناك فى عقله ، كأنها مكتوبة فى دفتر : أيام الشغل ، وكم ذراعا من الأرض عزقها ، وزرعها ، وقلعها ، وجمعها ، غيطان من غير آخر ، تمتد أمام عينيه كأنها قلع مركب .. كد فيها وشقى كالعبيد هو وامرأته وبنته ، وماذا فضل له ؟ مايكاد يحوش لنفسه بضعة قروش حتى يجيء الناظر ويدفع فى وجهه بورقة التحصيل الصفراء . فيروح يحسب الحساب من جديد . والحقيقة أن الحكاية كلها غريبة جدا . فهو متأكد أن له بقية من الحساب ، بدلا من أن يدفع من جيبه . ولكن الأمور تحدث على غير ما فى الحسبان ، فى كل مرة يفتح فيها المالك الكبير دفتره ، ويرجع إلى ماهو مكتوب فيه .

خذ مثلا عندك ، فى صباح هذا اليوم نفسه ، لمّ المالك الكبير والناظر

بعضهما بعضاً ، وراحا يكتبان ويحسبان ، وطلع الرجل وعليه دين ، كذا وكذا من الأرض عليه أن يفلحها ، وكذا وكذا عليه أن يعزقها ، وفوق البيعة أيضا ثلاثين يوما من الشغل ، سخرة من غير أجر .

– هيه ، مبسوط يايون ؟

– أ .. أى .. والله ، مبسوط .

– يعنى مضبوط ؟

– مضبوط .

ولما رجع إلى البيت ، راح صاحبنا يحسب حساباته ، على قدر مايعرف ، بالاجتهاد . فطلع الحساب غير مضبوط .

– ارجع هناك يارجل بقلب وعزيمة . لاتتركهم يلفّوك وينصبوا عليك . ياداهية ، هل نحن ندّعى عليهم بالباطل ، أو ننصب ؟ وماعندنا الآن أفواه تطلب الغذاء ، فالبنت عندها رجل الآن وأصبح لها بيت ، فأين يروح كل مانكسب ؟

لاتنس أن هذا يوم دفع الضريبة ، وأنهم سيجيئون لندفع لهم وليس عندك قرش واحد . سيتركوننا على الأرض . ويمسحون على كل شىء . والبقرة هزلت حتى ماعاد فيها لبن ، والواحد يرى عظمها طالعا من جلدها ، وهذا الصباح قلعت القش من على الكوخ حتى أعطيها علفا تأكله . فبماذا تطعمها طول الشتاء ؟

مسكين يون .. كان يود لو عاد من على عتبة الباب ، عندما وصل للقصر الكبير ، لو لم تكن هذه الكلمات ترن فى أذنيه ، كأنها دوى الطبل . وكانت أولى ندف الثلج تتساقط قليلة نادرة ، تشتتها الرياح ، كأنها زهرات بيضاء تنفضها السماء . والقرية كلها تبدو خاملة فى خدر عميق ، ويسمع الواحد بين الحين والحين خوارا طويلا يتردد فى أصداء توشك أن تكون كئيبة مقبضة ، فى صمت الوادى الذى يشيع فيه الأسى .

– والآن ، توكّل على الله .

وهاهو ذا يون المسكين ، وقد تسمر مرة أخرى بالقرب من الباب ، تماما كما كان فى صباح هذا اليوم نفسه ، وقد ذهل وسدر وداخ ، وراح يعجن قلنسوته ويعصرها بين يديه ، دون أن يدرى كيف يبدأ الكلام .

– هِهْ ، ماذا جاء بك ؟

– والله ، ياسيدى .. يعنى ، هذا الحساب نفسه ، كما تعرف .. وسكت يون ، وقد انحنت على جبهته قلنسوته . كانت نظرة المالك الكبير قاسية صارمة مربدّة ، محنقة ، وقد جعلت قلبه يتجمد ويتثلج .

– بماذا تتهته أنت هناك ؟ لا أفهم منك شيئا .

– أننى أبوس الأيادى ياسيدى ، وأرجوك أن تروّق بالك وتوسّع لى صدرك ولكن الحكاية يعنى .. الواحد منا لايعرف القراءة والكتابة ، فإذا تكرمت وعملت الحساب مرة أخرى ، كما تعرف ، حساب هذه السلفة ،، لأنه ، لأننى .. لأننى يعنى .. رجل فقير ، وهذا يغضب الله ..

– أه ، كذا ؟ طيب ، انتظر ، وسترى .

ونهض المالك الكبير ، شد الحبل المفتول المعلق فوق السرير شدا عنيفا . فظهرت الخادمة مذعورة .

– اذهبى نادى كوستاكيه .

وراح المالك الكبير يذرع الغرفة جيئة وذهابا ، ويداه فى جيوبه ، وقد بدا عليه الغضب الصارم . وبقى يون يعصر قلنسوته ، وعيناه مثبتتان بالأرض ، يعالج أن يتذكر ماقام به من عمل ، وما قبضه من نقود ، وظهر كوستاكيه الناظر ، هذا الجزار الوغد ، ووقف بالباب .

– يقول أنه غير مقتنع ، خذه إلى المكتب إذن ، وفهّمه .

فأشار كوستاكيه إلى يون أن يتبعه .

– ماذا تريد ؟

ولم يتح له وقتا أن يجيب ، بل سدد إليه لكمة فى ملء وجهه ، أدمت فمه . وبعد أن انقضت بضع دقائق فى « تسوية الحساب » طوح به

الناظر إلى الخارج ، ورمى له قلنسوته من فوق البوابة .

فأخذ يون الشقى سكّته ، وهو يترنح كمن أخذته سكرة من الشراب ، عارى الرأس ، مشعث الشعر ، وقد انكشف صدره وضرّجت قميصه بقع من الدم ، كان قد أخذ طريقه أولاً نحو الأرض المشاع ، ثم انتبه فى منتصف السكة ، وعاد أدراجه إلى البيت .

وبهتت « سافتا » لمرآه . وانفجرت « ميانكا » بالبكاء .

– ماذا جرى يايون ؟

– انظرى يا امرأتى بنفسك .. المالك الكبير سوى حسابه معى .. جاءته داهية .

وهبط الليل ، وعلى ضوء مصباح خافت جلسوا ، ثلاثتهم ، حول مائدة صغيرة مستديرة واطئة . وكانت عيونهم الخابية وقسمات وجوههم المشدودة تشى بالرعب واليأس ، حتى ليلوح أنهم يخافون النظر إلى بعضهم بعضاً ، وفرّجت سافتا عن صدرها بتنهدة ، وكسرت قطعة باردة من خبز الذرة ثلاثة أجزاء . وكانت فى وسط المائدة صفحة فى قاعها قليل من طبيخ الثوم ، لكن أحداً لم يمد إليه يده ، ولم يقل أحد منهم كلمة كانت الريح تصفر وتخشخش فى المدفأة . ومافتىء الثلج ينهمر فى الخارج . وخارت البقرة فى حظيرتها ، من الجوع . وعوى الكلب على الباب عواءً يائسا كئيبا .

تيودور أرجيزى

فى ١٨٩٦ كان تيودور أرجيزى فى السادسة عشرة من عمره عندما نشر أشعاراً فى إحدى المجلات الرومانية ، لفتت إليه الانتباه ، ولكنه لم ينشر مجموعته الشعرية الأولى إلا بعد ذلك بثلاثين عاما ، ثم نشر بعد ذلك « أزهار العطَن » و « كلمات مختلفة » وغيرها من المجموعات الشعرية التى تحتل مكانة هامة فى تاريخ الشعر الرومانى .

وهو فى كتاباته النثرية ليس أقل خصبا منه فى كتاباته الشعرية .

فى مقالاته التى جمعها فى كتاب بعنوان « صور من بلاد كوتى » نلتقى بذلك الجو الخرافى الذى نجده - مثلا - فى كتابات سويفت اللاذعة السخرية ، أو فى تخييلات مونتسكيو فى « الرسائل الفارسية » : الفانتازيا تميط اللثام عن الحقائق .

الغنى والتنوع فى الأنغام والأجواء - شعراً أو نثرا - وثراء الصُور وبراعة فى تلوين اللغة ، من سمات أدب تيودور أرجيزى .

الأم

تيودور أرجيزى

جاءت روح صغيرة من عالم الأرواح فتقمصت العمارة المهجورة التى سوف يستأنف فيها العمل عند مجىء الربيع ، وهبّت بين أكوام خشب البناء وأوعية الجير وخلاطات الأسمنت ، وسارت تحت المطر .

كلبة صموت حزينة من فصيلة كلاب الرعاة ، طويلة الشعر ، وقد جاءت تتسول الصدقة عند قضبان السور .

وكان بوزها الذى يحوم حوله الذباب ، وعرنين أنفها الدقيق ، ورأسها المزدان بتوشيةٍ من الزخارف والرموز ، تبتعث صورة كلبة من كلاب الأساطير . فعساها قد رؤيت فى اصطبلات الملوك القدامى ، أو لعلها صاحبت « ديانا » تحت ضوء القمر الباهت فى ليلةٍ من ليالى الصيد . جمال مظهرها الجليل يحمل سمة نبيلة . عيناها تستقران فى إطار الجفنين المستطيلين كأنهما زرّان من الصدف يتخايل له وميض مذهّب . وشْىُ الحرير ، فى أذنيها اللتين يتموج نؤابتاها السوداوان ، يهبط من قمة الجبهة منحرفا شيئا ماحتى يحسُن مظهراً ويروق ، كأنه عقدة الزاسية يتدلى طرفاها . فى فمها الطفلى أثر ابتسامة كأنها يدى عازفة قيثار تبتسم أصابعها وخواتمها . أما قدمها فمرسومة بتوازن نادر فى

كل التفاصيل حتى تكفل سنادا وطيدا لصدرٍ خطوطه كخطوط صدر بجعة . ذيلها كريش نعامة يتموج تموج صفصافة ترتعش ، فكأنه ريشة قبعة من العصور الوسطى .

كل شيء فى هذه الكلبة يبدو كما لو كان قد انتقى عن تدبّر ، شعْرة شعرة ، وعظْمة عظمة ، وعبرت عنه أمثل الخطوط التى يتحدد بها حيوان يرتبط بالأرض بسيقانه الأربع ، وكأنما فروها الأبيض المرمدّ قد أُلقى على جسمها من موقدة صُهر فيها الرخام . وكانت الكلبة الشريدة إذ تمشى يبدو كأنها تجر خلفها وشاحا إسبانيا على الخشب فى العمارة .

كانت الكلبة الغريبة تسير فى يوم بارد اشتدت قسوة ثلجه ، على مرآة الأرض المتجمدة ، تتبعها ست كرات من الزغب ، لها ذيول ، تتعثر على جذاذات سيقانها المتحركة ، وجذاذات السيقان مائلة إلى الخارج، فى براءة وسذاجة كأنها سيقان مقعد صغير ، لا توافُقَ بين حركاتها . وكانت الجراء تتقدم فتتعثر وتتدهور فينقلب بطن ورديٌ فى الهواء ، ويتدحرج جرو على جنبه ، فهى متأرجحة هشة كالكرات وثقيلة كحيوانات ضخام . كانت الجماعة تتقدم فى مشقة ، فتنهار دفعة واحدة . ولا تستقيم إلا بمشقة .

هذا المشهد الخارق أكد لنا أمومة الكلبة الوديعة ، وكان أول زوار هذه الحظيرة هم الأطفال الذين صفقوا للعائلة كما لو كانوا يصفقون لمشهد فى سيرك . كان لكل ولد صغير وكل بنت صغيرة من ذلك سر

خفى ، وهوى مكتوم ، لفترة بضعة أيام . كانت حلوى البيت وأطايب الطعام تختفى دون حس ولا أثر ، بعد أن تُلَّف فى الورق الملون ثم تُحمَل ، بصبر نافد محموم إلى قضبان السور .

سرقت بنتى « ميتزو » قطعة من السكر وشيئا من العظام ، ثم فاجأتها تكسو بالزبد قطعة كبيرة من الفطير لفتها بعناية فى منديل ، كأنها شخص رشيد ، ووجهها مضىء بابتسامة عريضة ، بعد أن أضافت إلى الفطير بيضة وقطعتين من الحلوى ، كان ذلك للعائلة فى العمارة ، وأبقيتُ بالطبع على السر فى حرز حريز .

أما « باروتزو » ، وقد كان أصغر سنا وأكثر خيبة ، فقد عالج من ناحيته أن يضع فى ورقة صحيفة كل أنواع المؤن والزاد ، فكانت تسقط منه كلما انحنى يجمعها .

لم يعد الأطفال يخشون البرد القارس ، وفهمنا جميعا ، من وميض أعينهم المتوقدة بالحياة وهمساتهم فى الأركان ، أن شيئا مريبا يدور خفية ، واكتشفتُ قطعة صابون وفردة شراب فى ظرف مخبوء . وكان يقع لى أن أباغت بنتى وهى تتأمل الصور ، والكتب ، وقد انصرف ذهنها كل الانصراف إلى ما عساه أن يؤخذ للجراء .

كان ذلك شأن كل أطفال الناحية .

عندما شممنا ريح المؤامرة ، ورأينا لزاما علينا أن نتعقب أولادنا خلسة ، وجدنا أنفسنا نلتقى جميعا عند قضبان سور العمارة ، نحو

عشرين أبا . أما الأولاد فقد كان عملهم يستغرقهم حتى لم يشعروا بنا نتعقبهم . كانت « ميتزو » قد خطر لها أن تحمل إلى الكلاب الصغيرة عروسة ، بل كان « باروتزو » قد ذهب إلى أن يحرم نفسه من أفعل أدواته أثرا : السوط المركّبة فيه صفّارة .

وجدنا أنفسنا جميعا ، أهل الحى ، نحيى بعضنا بعضاً ، ونقدم أنفسنا لبعضنا بعضاً ، ونتبادل الآراء عن نوايانا ومشاريعنا ، ورجع ستة منا وعلى ذراع كل منهم جرو صغير ، وحمل أحد هؤلاء الستة الكلبة معه أيضا ، حتى لاتبقى وحيدة ، حزينة .

مكسيم جوركى

فى ١٩٠٦ ، بعد أن خرج جوركى من السجن ، تلقى دعواتٍ كثيرة للذهاب إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، لإلقاء محاضرات عن الثورة الروسية الأولى فى ١٩٠٥ . وقد قبل جوركى الدعوة ، وقضى نحو سنة فى الولايات المتحدة الأمريكية ، حيث لقى ترحيبا حارا كما لقى هجوما عنيفا انصبّ على عمله وعلى حياته الخاصة أيضا .

وفى هذا القصّ يرسم جوركى بفنه الصنّاع صورة رائعة لذلك « الحيوان الرهيب » الذى يحمل اسم « الغوغاء » ، أى جمهور المتسكعين ، فى يوم أحد ، من ضحايا الحياة الأمريكية .

أما « الكلب » فهى على رومانسيتها ، وربما بسببٍ من ذلك ، لافتة للنظر من بين أعمال جوركى الجهيرة ، بصرامتها الواقعية ودقة تفصيلاتها . السؤال هنا : هل تخلو « الواقعية » قط من لمحاتٍ رومانسية أو ومضات فانتازّية ، أو دلالات استعارية ؟

الغـوغـــاء

مكسيم جوركى

كان الترام منطلقا فى غير عجلة ، حين اصطدم بالسكّير ، فسقط هذا الأخير بثقل ، على الشبكة الأمامية أولاً ، ثم على القضبان .

وأخذت الشبكة تدفعه ، تجر الجسم الملتوى ، على الأرض ، وأخذت ذراعا السكير وساقاه تخبط الأرض بقوة . ويبتسم الدم ، رقيقا أحمر ، كأنما يريد أن يغوى شخصا ما ، وتدوى فى الترام صرخات النساء الثاقبة ، ولكن سرعان ماتضيع كل الأصوات فى عواء الغوغاء الكثيف ، كما لو قد أُلقى عليهم غطاء ثقيل خانق ومبلول ، صلصة الأجراس القلقة ، ووقع حوافر الخيل وأنين الكهرباء ، كلها اختفت من الخوف تحت موجة سوداء .

وتتذبذب ألواح الزجاج ، فى النوافذ ، بخوف . ولا يرى المرء شيئا إلا جسد الغوغاء الضخم ، يهتز ويضطرب ، ولا يسمع المرء شيئا إلا زئير الغوغاء وصيحاتهم الثائرة تعلن وجودهم .

وترتفع فى الهواء مئات الأيدى الممتلئة بالعنفوان ، وتتوهج الأعين بتألق شره نابع عن جوع جاد .

إن « الغوغاء » السوداء تضرب ، تمزق ، تنتقم لنفسها .

وفى زوبعة الصرخات تتردد كلمة تُصفّر وينطلق منها الشرر كسكين مرنة حادة :

– اقتلوه ! ..

صعدت بضع جماعات على سقف الترام ، ومن هناك أخذت هذه الكلمة تطير وتحلق فى الهواء ، لاذعة كالسوط ، تتلوى بألف التواءة :

– اقتلوه ! ..

تكونت فى وسط الغوغاء نواة . هذه النواة قد ابتلعت وامتصت شيئا ما ، وهى تتحرك لكى تنعزل عن الكتلة التى يستسلم جسمها الكثيف للضغط ، وشيئا فشيئا تتحدد هذه النواة المتماسكة السوداء ، رأس « الغوغاء » وفمها ، تنتزع نفسها من أحشاء « الغوغاء » ، وتخرج .

هذا الفم يمسك بين أسنانه رجلا مغطى بالدم ، أصبحت ثيابه هلاهيل . أنه سائق الترام ، كما يتضح من الشرائط المدلاة من كمه .

لكنه الآن ليس إلا قطعة من اللحم الممضوغ ، اللحم الطازج ، يجعلها الدم القانى أكثر إثارة للشهية .

ويحمله فم « الغوغاء » الأسود ، ويواصل مضغه ، وتلتف حول هذا الجسم أيدى « الغوغاء » ، كأنها أذرع أخطبوط .

« الغوغاء » تعوى :

– اقتلوه ! ..

يتكون خلف هذا الرأس جـذع طويل وثيق التـمـاسك ، على أهبـة لابتلاع قدر هائل من اللحم الطازج .

وفجـأة ، ينهض أمامه الرجل الحليق ذو الوجه النحاسى . لقد جذب قبعته الرمادية على جبهته ، فهو يشبه حجراً رماديا يسد السبيل أمام الغوغاء ، دون كلمة يرفع عصاه .

ويهتز رأس الغوغاء إلى اليمين ، وإلى اليسار ، للإفلات من هذه العصا .

إن رجل الشرطة ثابت لايتحرك واليد التى تحمل العصا لاترتعش ، ولا ترمش عينا الرجل الهادىء الواثق ، إن يقينه من قوته ليبلغ أن يُؤتى أثر ريح مثلوجة تهب على وجه « الغوغاء » الملتهب .

ترتفع صيحات غير واضحة . وتهتز مخالب الغوغاء كأنها تريد أن تقضم كتفى رجل الشرطة ، وتتسلل إلى الصيحة المغيظة نبرة شكاة .

عندما ترتفع العصا القصيرة ، تتمزق صيحة « الغوغاء » بشكل غريب ، وينهار جذعها شيئا فشيئا ، بينما يستمر رأسها يترنح إلى اليمين وإلى اليسار .

ويقترب رجلان آخران ، مزودان بالعصى القصيرة ، دون تعجل . ومخالب « الغوغاء » تُسقِط الجسم الذى كانت قد أمسكت به ، فيسقُط

على ركبتيه ، ويتمدد تحت أقدام ممثلى القانون . وهؤلاء يبسطون عليه رمز قوتهم ، العصا القصيرة غير المدببة .

ويتفكك رأس « الغوغاء » ببطء .

وتنساب « الغوغاء » فى مجارى الشوارع ، عكرة صامتة ، ممزقة الأطراف .

الكلـــب

مكسيم جوركى

كـانت الظـلـمـة بلونهـا الأزرق المـسـوّد الشـفـاف تشـمل الريف ، وتُصـعِّد ، من الأرض الحـامـية من الشـمس طول النهـار ، رائحـة دافـئة خانقة ، ارتفع القمر المحمر العكِر ببطء ، وفى الأفق كانت سحابة مـعتمة مستطيلة كـأنها سمكة ، تحلق بلا حراك ، وتشق قرص القمر الذى يشبه فنجانا ممتلئا بالدم .

كنت متجها عبر الحقول ناحية المدينة الصغيرة النائمة ، وكنت أوجه النظر إلى صلبان الكنائس وقد أخذ لمعانها يبهت شيئا فشيئا ، وكان يطفـو لملاقـاتى صـوت غـريب ، لايمكن إدراكه ، كـأنه ظل . وهنـاك كلب يجرى على الطريق المعتم المترب ، يقبل علىّ ، فى خط مستقيم ، من غير تعجل ، ذَنَبه بين ساقيه ، ولسانه متدلٍ ، يهز رأسه . وكنت أراه أحيانا ينفض نفسه ، ليُشتت شعره الملبّد فى خصل متلاصقة . وكان فى جريه المنتظم ما يوحى بالهمّ ، ولاح لى أن هذا الكلب البائس الجوعان قد قرّ عزمـه نهـائيا ، لن يـهزه شىء . فصفرت له بصـوت خـافت ، وناديته ، فـارتعد ، وأقـعى ، ورفع رأسـه ، وعيناه تتـألقان ، وفيـهما عداوة ، وكشر عن أنيابه ، وأخذ يزوم . وعندما أقبلت عليه نهض بتثاقل ، وفى حدقتىْ عينيه بريق جاف صلب ، ونبـحنى بصـوت أجش مبـحوح ، ثم غير وجهته

فجأة ، وانحرف عن الطريق . وكان يستدير من وقت لآخر ، لينظر إلىّ ، وهو يهز ذيله الذى لصقت به بضع بذور من الغيطان ، وأخذت أتبعه ببصرى . كان يمضى وحيدا بين الغيطان ، فى صمت البُعد المعتم ، متجها دون حَيَد ناحية قرص القمر الأحمر ، القمر البارد المتهدِّد .

وقد رأيته مرة أخرى بعد يومين أو ثلاثة ، كان ممدداً تحت شجيرة على حافة وادٍ صغير ، تدور فوقه أسراب الذباب الضخم الشرِه ، وكان الذباب يمشى فى محجرى عينيه الميتتين ، وينفذ فى داخل الفم الفاغر ، وهو يطنّ ، ويتغلغل خلال شعره . كان الكلب ينظر ناحية المدينة بعينه الخامدة ، وعنقه ممدود ، وأسنانه الصفراء عارية . وفى السماء كانت السحب ، كالندف البيضاء ، تذوب وهى تمرح فى أشعة الشمس ، وظلال رقيقة تمر بالهواء ، كما لو كانت الأرض والسماء تتحدثان حديثا صامتا ، وكانت هذه الظلال أحيانا تغطى جثة الكلب . وعندئذ كانت عينه القاسية التى تتفحص الأفق ، ناحية المدينة التى يعيش فيها الناس ، تصبح أكثر عتمة وإظلاما .

وقلت للكلب الميت :

– المجد لك .. ! لقد عشت بين الناس ، وتركتهم لكى تموت وحيدا ..

لم ترض أن تؤذى مشاعرهم بأن تُريهم كيف كنت تفنى وتتلاشى وأنت مازلت على قيدالحياة ، كنت أبيّا كبير النفس ، ولم تْرضَ أن يروا هذا الكلب الطيب المِرّاح الذى كنته ، يستحيل إلى متطفلٍ مريض ، هرِم

وطائر اللب ، يعيش على ذكريات الماضى ويغتذى بالشفقة الإنسانية المهينة . المجد لك .. لأنك لم تدنّس الحياة بنباح أبحّ كاذب صادر عن أَثَرة عتيقة ، ولم تكْفَر بالحياة ، بزمجرة حيوان محنَق عاجز يَنفق من الشيخوخة .. المجد لك .. !

كم كنت أحب أن أسدى هذا الثناء إلى كثير من أنصاف الموتى من الذين يسممون حياتنا بنتن عفونتهم ، كم كنت أحب أن يتخذوك قدوة .. أيها الكلب الطيب ! .

إنهم يحملون الموت فى قلوبهم ، منذ زمن طويل ، لكنهم يظلون يئنون ، يظلون يتكلمون ، ويُسيلون على رؤوسنا القَيْح العفِن من نفوسهم الميتة ..

المجد لك .. أيها الكلب !

أنطون تشيكوف

هل هناك من القراء العرب من لا يعرف تشيكوف ؟ (١٨٦٠ - ١٩٠٤) وهل هناك ما يمكن أن يُضاف إلى كل ما كُتب عنه ؟

ولد فى بلدة اسمها تاجانروج فى روسيا ، وكان جده من أقنان الأرض ، واستطاع بجهد خارق أن يحصل على درجة علمية طبية ، لكنه لم يمارس الطب إلا فترة وجيزة قبل أن يرهن نفسه تماما للكتابة .

هل يصح أن نقول إنه قد أدخل « الانطباعية » إلى لغة الأدب ؟

لعلّ الخصائص المميزة لكتابته هى سبرٌ مرهف رقيق لدخائل أشخاصه وتغيُّرات - أو تقلبات - طبائعهم أو أمزجتهم ، ثم تعاطفٌ عميق ورحمة ، ولعلّ اهتمامه بالحبكة أوالعقدة التقليدية فى القصة ، وإن كان موجودا إلا أنه لا يَحْكُم قصته - أو مسرحه - حكماً صارما .

فى المنفى

أنطون تشيكوف

جلس سيمون – وهو عجوز أدرد ضامر الجلد يقارب الستين – مع تَتَرى يافع ليس من يعرف اسمه ، على شاطىء النهر ، قُبالة نار موقدة من الخشب . وكان سيمون سكران ، وهو لم يكن ليبق حتى الآن يقظا لو لم يخش أن يطلب منه أحد زملائه شيئاً من زجاجة الفودكا التى يحملها فى جيبه . وكان التترى مريضا وشقيا يتلفف بالخرق التى يرتديها ويحكى عن طيبات الحياة فى مديرية سيمبرسك وكم كانت امرأته التى تركها هناك جميلة وحاذقة . لم يكن يجاوز الخامسة والعشرين وهو يبدو الآن – على نار الخشب – صبيا لا أكثر ، وله هذا الوجه الباهت المُعانى الأسيف .

وكان سيمون يقول : بالطبع ليس هذا المكان جنة ، فأنت ترى : المياه والشجر العارى على النهر . طين فى كل خطوة . وليس غير الطين . وقد مر عيد الفصح من زمان ومع ذلك فما زال الجليد على الماء وقد ثلجتنا السماء فى الصبح .

فأجاب التترى وفى عينيه خوف : ردىء ! ردىء !

وعلى خطوات قليلة كان النهر البارد المعتم يجرى ويجمجم ، يهضب على فجوات الشاطىء الطينى وهو ينطلق إلى البحر النائى ، وهناك على البعد – على أقصى البعد – كانت النيران تزحف كالثعابين ، تخطف وتتوقد ثم تخبو ، ومن وراء الماء لم تكن إلا الظلمة ، وكتل من الجليد يسمعانها وهى تقعقع وتصطدم بالمركب . كان الجو رطبا جدا ، وباردا .

ونظر التترى إلى السماء . النجوم هنا كالنجوم فى بلده والظلمة هى بعينها ولكنه يفتقد شيئا ما . كانت النجوم والسماء فى بلده شيئا آخر بالمرة .

فأخذ يردد · ردىء ! ردىء !

أجابه سيمون ضاحكا : سوف تعتاد هذا فما زلت صغيرا وأحمق . لم يجف اللبن بعد على شفتيك ويخال لك فى حماقتك أن ليس من هو أشقى منك . ولكنك ستصبح ذات يوم وأنت تدعو الله أن يمنح الناس كلهم مثل حياتك . انظر إلىّ · ستنتهى الفيضانات بعد أسبوع وإذ نهيىء « المعدية » هنا تذهبوا كلكم إلى سيبريا أما أنا فأبقى هنا . أروح وأغدو من ضفة لأخرى . وقد قضيت اثنتى وعشرين سنة على هذا النحو . والحمد لله لا أريد شيئا ، فليمنح الله الناس كلهم مثل هذه الحياة !

قذف التترى بقليل من الأغصان إلى النار وزحف مقتربا منها وهو يقول

– أبى مريض . وقد وعدتنى أمى وامرأتى أن تأتيا إلى هنا عندما يموت .

– ماذا تريد من أمك وامرأتك ؟ حماقة ياصديقى . هذا الشيطان يغريك عليه اللعنة . لا تسمع إلى الشرير ولا تستسلم له ، فإن حدثك عن المرأة أجبْ بحدة : لا أريدها .. وعندما يتحدث عن الحرية قل له لا أريدها لا أريد شيئا لا أب ولا أم ولا امرأة ، لا حرية ولا حب ولا بيت ، لا أريد شيئا من كل هذه ، عليها اللعنة كلها .

وجرع سميون من زجاجته مستطردا :

– لست فلاحا يا أخى ، ولست أنحدر من الجموع المستضعفة فأنا ابن عرّيف فى الكنيسة وعندما كنت رجلا حرا فى رورسك كنت أرتدى الفراك ، ولكننى الآن قد بلغت أن أنام عاريا على الأرض وأن آكل الحشيش ، اللهم امنح الناس كلهم مثل هذه الحياة ، فلست أريد شيئا . لست أخشى أحدا وأعتقد أنّ ليس فى الأرض من هو أغنى منى وأوفر حريه . فعندما أرسلونى من روسيا إلى هنا حرّقت أسنانى على الفور قائلا : لست ..لست أريد شيئا . وكان الشيطان يهمس بى امرأتى واقربائي والحرية فأقول له لا أريد شيئا . وتجلدت . وهأنذا كما ترى أعيش سعيدا لا أتضجر . فإن ضعُف المرء للشيطان على أتفه نحو وسمع له – مرة واحدة

ليس غير – فهو ضائع ولا أمل فى نجاته ، يغوص فى الوحل حتى الآذان ولا خلاص له أبدا ، ليس الفلاحون من أمثالك فقط بل المثقفون وأبناء النبلاء .. منذ خمسة عشر عاما نُفى هنا أحد النبلاء من روسيا . كانت هناك منازعة بينه وبين أخوته واقترف تزويرا فى وصية . فزعم البعض هنا أنه أمير أو نبيل . ولعله كان موظفا كبيرا . من يدرى ؟ جاء إذن هنا وعلى الفور اشترى بيتا وأرضا فى « موكهزاتيك » وأخذ يقول : « أريد أن أعيش من ثمرة كدى بعرق جبينى . فلست نبيلا الآن وإنما فى المنفى » . فأجبته « ماذا إذن ؟ باركك الله فهذا حسن جدا » . وقد كان يافعا حينئذ متوقدا بالحماس كان يحصد الزرع ويصطاد السمك ويركب ستين ميلا على ظهر جواده . شيئا واحدا لم يكن على صواب فيه ، غلطته منذ البداية : كان يركب إلى مكتب البريد فى جويرين ويجلس فى قاربى ويتنهد : آه ياسيمون . مرّ زمان طويل منذ أرسلوا لى مالاً من البيت . فأجيبه : « إنك أحسن حالاً من غير مال يافاسيلى أندريتش ، وما الجدوى ؟ ارمِ الماضى وراء ظهرك كما لو لم يكن لك ماض بالمرة – كما لو كان حلما وابدأ حياتك من جديد : لاتسمع إلى الشيطان فلن تفيد منه شيئا . بل يضيّق الحلقة حول عنقك . أنت تريد الآن شيئا من المال وبعد قليل تريد شيئا آخر ثم أكثر فأكثر قلت له « إذا كنت تريد السعادة فيجب ألا تريد شيئا على الاطلاق . بالضبط . لقد كان القدر قاسيا علىّ وعليك فلن نسأله اليوم صدقة ولن نرتمى على قدميه . فلنغمض

عنه ونسخر به » هذا ما قلته له .

وبعد سنتين عبرت النهر به وهو يفرك كفيه ضاحكا : « أنا ذاهب إلى جويرين لألقى زوجتى . لقد أشفقت علىّ وجاءتنى هنا . إنها شفوق جدا وما أطيب قلبها » . وشهق من الفرح . وجاء ذات يوم مع امرأته . سيدة جميلة شابة تحمل بين ذراعيها بنتا صغيرة وعفشا كثيرا . وظل فاسيلى أندريتش يستدير إليها ويرمقها ولم يكن يشبع من النظر إليها والإطراء عليها : « نعم ياسيمون أيها الصديق . حتى فى سيبيريا يعيش الناس ودار فى خاطرى « طيب طيب . فلن ترضى أو تقرّ عيناً » ومن ذلك اليوم كان يدأب على الذهاب إلى جويرين مرة كل أسبوع ليرى هل أرسلوا له مالاً من روسيا . وأنفق قدرا مخيفا من المال وهو يقول « إنها تمكث هنا من أجلى . يذبل شبابها وجمالها فى سيبريا وهى تقاسمنى مرارة عيشى فيجب أن أمنحها كل ما أقدر عليه من مسرّة » ولكى يسعد امرأته أخذ يصاحب الموظفين ونفايات الناس . ولم يكونا ليؤْدِبا الولائم والحفلات من غير الطعام والشراب . وليس غِنىً عن البيانو وكلب صغير ذى فراء على الكنبة .. وفى كلمةٍ واحدة الترف . وكل أنوا ع المهازل .

ولم تبق معه السيدة طويلا . وكيف تقدر ؟ الطين والماء والبرد ، لا خضر هناك ولا فواكه ، أناس أجلاف بلا ثقافة وسكّيرون لا أخَلاق لهم . وكانت سيدة مرفهة حلوة من العاصمة فسئمت . لم يعد زوجها بعد بالسيد النبيل بل هو فى المنفى -- وثَمّ اختلاف كبير بين الأمرين . وأذكر

بعد ثلاث سنوات فى عشية عيد صعود العذراء أن سمعت صيحات من الشاطىء الآخر . فعبرت بالمعدية ورأيت سيدتى تلك متلففة متدثرة فى صحبه سيد شاب ، موظف فى الحكومة ، فى عربة بثلاث ، عبرت بهما النهر فامتطيا العربة ومضيا . وقرب الصبح جاء فاسيلى أندريتش يعدو فى عربة وزوج : « هل عبرت زوجتى ياسيمون مع سيد بنظارات ؟ » فأجبته « نعم عبرت .. وأسهل لك أن تلحق بالريح بين الحقول » ولكنه راح يعدو خلفهما خمسة أيام بلياليها وعندما عاد وثب إلى المركب وراح يخبط رأسه بجدارها ويبكى بصوت مرتفع فقلت له : « ها أنت ترى .. » ، وضحكت وذكّرته ما قال « حتى فى سيبيريا يعيش الناس ! » ولكنه مضى يخبط رأسه . ثم جاءته شهوة الحرية . ذهبت امرأته إلى روسيا فأخذ يتوق أن يلحق بها ليراها ويستعيدها من حبيبها . وراح يتردد على مكتب البريد كل يوم ويذهب إلى أصحاب السلطان فى المدينة . وكان على الدوام يبعث بالالتماسات فى البريد أو يسلمها إلى أصحاب السلطان شخصيا ، يطلب العفو عنه والتصريح له بالرجوع . وأخبرنى أنه أنفق فوق المئتى روبل على البرقيات . باع أرضه ورهن بيته للمرابين ، أبيضّ شعره واستدارت كتفاه وتسللت الصفرة إلى وجهه وبدا كالمسلول . وكان يسعل كلما فتح فاه ليتكلم وتندفع الدموع إلى عينيه . قضى ثمانى سنوات فى التماساته ثم استرجع حيويته وسعادته فقد وقع على شىء جديد . كبرت بنته فراح يهيم بها ولا ينقل عنها بصره وكانت فى الحق حلوة جدا . سمراء وذكية . كانا يذهبان معا إلى الكنيسة فى

جويرين صباح كل أحد يقفان جنبا إلى جنب فى المعدية ، هى تبتسم وهو يلتهمها بعينيه : « نعم يا سيمون حتى فى سيبيريا يعيش الناس . حتى فى سيبيريا هناك سعادة . انظر إلى بنتى كم هى رائعة ! فلن تجد لها نظيرا فى ألف ميل » قلت له « هى بنت لطيفة أى نعم ! » ودار فى خاطرى « مهلا فما زالت صغيرة وللشباب نزواته ودمه المتوثب فهى تريد أن تحيا .. وأى حياة هنا ؟ ! » أما هى فراحت تذبل وتضوى . تضيع وتنوى .. تنوى . مرضت ولزِمت فراشها . السلّ . هذه هى السعادة فى سيبيريا . عليها اللعنة . هذه هى حياة سيبيريا . وانطلق يجرى هنا وهناك خلف الأطباء يجرّهم معه إلى البيت . فإذا سمع بطبيب أو نصاب على بعد ثلاثمائة ميل ذهب يجرى وراءه . وأنفق قدرا مخيفا من المال على الأطباء . وفكِّرى لو أنه أنفقه على الخمر لكان أجدى . فليس لها إلا أن تموت . لا محالة . ويقضى الأمر عندئذ . يفكر أن يشنق نفسه أو أن يفر إلى روسيا وتكون تلك نهايته . يفر فيُقبض عليه ويحاكم . أشغال شاقة مؤبدة والجلد بالسياط » .

فهمس التترى وهو يرتعد : خير ! حسن !

سأله سيمون : أى شىء حسن ؟

– المرأة والبنت . ماذا تهم الأشغال المؤبدة والعذاب . قد رأى امرأته وبنته . تقول يجب ألا يريد المرء شيئا – أى شىء . ولكن هذا – شرّ . قضت معه امرأته ثلاث سنوات . أعطاه الله هذا . أما

لاشىء .. هذا هو الشر . لكن ثلاث سنوات خير . ألا تفهم ؟

كان التترى يتلمس كلماته بالروسية وهو لا يعرف منها إلا القليل – ويرتعد ويتلعثم ، يستعيذ بالله أن يقع بين الغرباء ويموت ويدفن فى التربة الباردة الموحلة . لو أن زوجته جاءته – يوما واحدا – بل ساعة واحدة ، لا ستطاع إذن أن يحتمل أى عذاب من أجل هذه السعادة – ويحمد الله . يوما واحدا من السعادة . خير من لاشىء .

ومرة أخرى راح يقول كم كانت امرأته جميلة وحاذقة وغطى رأسه بيديه وأخذ يبكى ويؤكد لسيمون إنه برىء ومتهم ظلما . سرق أخواه وعمه الخيل من فلاح وضربوه حتى قيد خطوة من الموت . وصدر الحكم بنفى الأخوة الثلاثة إلى سيبيريا بينما بقى عمه – وهو رجل ثرى – فى البلد .

فقال سيمون : سوف تعتاد هذا .

عاد التترى إلى صمته وراح يحدق إلى النار وعيناه حمراوان من البكاء . وعلى وجهه حيرة وخوف . كأنما كان لا يقدر أن يفهم لم كان فى الظلمة والبرد بين غرباء ، وليس فى بلده بمديرية سيمبرسك . رقد سيمون بجانب النار وابتسم لشىءٍ ما وأخذ يقول فى نغمة خفيضة :

– ولكن امرأتك هذه مصدر مسرّة لأبيك . فهو يحبها ، وهى عزاء له . هه ؟ نعم يا رجل ، اننى أعرف ، فهو رجل صارم وخشن والبنات لا يملن إلى الخشونة . إنهن يردن القبلات والضحك .

الروائح والدهون . نعم . آه .. أى حـياة !! أقسم سـيمـون يمينا غليظة : كفاية فودكا . حان وقت النوم ، ماذا ؟ أنا ذاهب يارجل !

وجد التترى نفسه وحيداً فألقى ببعض الأغصان إلى النار ورقد محدقا إلى اللهب مفكرا فى قريته وامرأته . لو أنها تأتى شهرا واحدا ، أو يوما واحدا ، ثم تعود إذا شاءت ، بعد ذلك ! شهراً أو يوماً واحدا خير من لاشىء ! ولكن ماذا لو وفت امرأته بوعدها وأتته هنا : كيف يعولها ؟ وأين تعيش ؟ وساءل نفسه بصوت مرتفع : إذا لم يكن هناك مايؤكل فكيف نعيش ؟

كان يقبض فلسين فى اليوم جزاء على العمل بالمجذاف طوال النهار والليل ، وكان العابرون يجودون بالمنح . ولكن النوتيّة كانوا يقتسمونها ولا يعطون التترى شيئا – بل يضحكون منه . وكان فقيرا وبردان ، خائفا وجائعا . وجسمه كله يرتجف ويطحنه الألم وهو يفكر أن الخير أن يذهب إلى الكوخ لينام . ولكن لم يكن فى الكوخ مايتغطى به بل كان البرد أشد لذعا ، ليس هناك مايتغطى به هنا ولكنه يستطيع أن يوقد نارا .

وبعد أسبوع عندما ينحسر الفيضان وتصلّح المعدية لن تكون هناك حاجة إلى النوتية فيما عدا سيمون . وسيمضى التترى من قرية إلى قرية يتسول ويبحث عن عمل . كانت امرأته فى السابعة عشرة . جميلة ناعمة وخجول . أتقدر أن تمضى من قرية إلى قرية بلا حجاب تلتمس

صدقة ؟ لا . كانت الفكرة بشعة .

كان الفجر قد أشرق وأخذت تتحدد فى الضوء الغسقى أشكال المراكب وأشجار الصفصاف فوق المياه والتيار المدوّم . وفوق الضفاف لاح ثمّ كوخ مسقف بالقش وبيوت القرية المتداعية وقد أخذت الديوك تزقو وتصيح .

هذا الشاطىء والمركب والنهر والناس الغرباء فى شراستهم . والجوع والبرد والمرض . لعل ذلك كله لا يوجد فى الحقيقة . خيّل للتترى أنه يحلم ، أنه يحلم ، وأحس أنه نائم بلاشك بل هو يسمع صوت شخيره ، أنه فى بيته إذن فى مديرية سيمبرسك وليس عليه إلا أن يدعو زوجته فتجيب ، وأبوه فى الحجرة المجاورة . أية أحلام رهيبة .. ماذا ؟ فتح التترى عينيه وهو يبتسم .. ماهذا النهر .. الفولجا ؟

كانت السماء تثلج . وجاءته صيحة من الضفة الأخرى : هيه .. معديّه ! معديّه ! .

أفاق التترى وذهب يدعو زملاءه ليعبروا بالمعدية إلى الجانب الآخر . وبدا الرجال الأربعة على الضفة مرتعدين من البرد يلبسون ثيابهم من فرو الغنم ويشتمون فى أصوات خشنة لمّا تفق بعد من النوم . ولاح لهم النهر – بعد نومهم – بشعا مرعبا والرياح الثاقبة تهب منه . فخطوا فى بطء إلى المركب وأخذ التترى ورفاقه مجاذيفهم الطويلة العريضة الحافة وقد بدت فى الضوء المعتم كمخالب حيوان مائىّ . وألقى سيمون بنفسه ،

وبطنه إلى الدفة ، واستمر الصوت يهتف بهم من الضفة الأخرى . ودوّت طلقتان من المسدس فقد كان الرجل يظنهم نائمين أو فى خان القرية . فقال سيمون : « طيب مهلا .. هناك الكفاية من الوقت » فى لهجة المؤمن أنه لا حاجة للتعجل فى هذا العالم . وفى الحق لم يكن للعجلة من سبب .

ابتعدت المركب الضخمة الثقيلة عن الشاطىء وانسابت ترتفع وتنخفض بين أشجار الصفصاف وكنت تحس المركب تتحرك إذ ترى الصفصاف يتراجع فى بطء . وضرب الرجال بمجاذيفهم فى حركة متأنية منتظمة . والتصق سيمون بالدفة يهتز من جانب إلى جانب . ولاحوا فى الضوء المعتم كأنما يجلسون فوق حيوان منقرض قديم طويل الأطراف يعوم إلى بلد بارد فى كابوس رهيب .

وخرجوا من بين الصفصاف إلى عرض النهر وكان من المستطاع أن تسمع صوت المجاذيف تطس الماء وتثير الرشاش . وجاءتهم الصيحة : أسرعوا . عجّلوا .. ! وبعد عشر دقائق اصطدمت المركب الثقيلة بالمرساة .

وكان سيمون يتمتم « مازال الثلج يتساقط . الثلج طول الوقت » . وهو يمسح وجهه « الله يعلم أين يأتى كل هذا الثلج » .

كان ينتظرهم على الشاطىء الآخر عجوز طويل ونحيف يرتدى معطفا من فراء الثعلب وقبعة من الاستراخان الأبيض . يقف على مبعدة من خيله ولايتحرك . وعلى وجهه تعبير فيه جفوة وصرامة . تعبير متقبّض كأنما يجهد أن يتذكر شيئا ويحنقه أنه لا يستطيع . وعندما أتاه

سيمون مبتسما رافعا قبعته بالتحية قال له : « إننى فى عجلة للوصول إلى « أنا ستاسيفكا » فبنتى مريضة ويقولون أن هناك طبيبا جديدا » وانتقلت عربته إلى المعدية وأخذوا يعودون وبينما كانوا يجذفون كان فاسيلى أندريتش يقف بلا حراك يضغط على شفتيه الرقيقتين ويحدق فيما أمامه . وعندما طلب منه سائق العربة الإذن أن يدخن فى حضرته لم يجب كأنما لم يسمعه . ووقف سيمون إلى جانب الدفة ينظر إليه فى سخر وقال :

- حتى فى سيبيريا يعيش الناس .. يعيشون !

وعلى وجهه تعبير ظافر كأنما يبرهن على صحة شيءٍ ما بالدليل الدامغ - كأنما يسره أن الحوادث جاءت مصداقا لأقواله على وجه الدقة . كأنما كانت تلك النظرة التى على وجه الرجل - شقية وبلا أمل - مصدرا لسروره العميق .

وعندما لُجّمت الخيل على الشاطىء الآخر قال له . إن الطرق الآن موحلة يافاسيلى أندريتش . من الخير أن تنتظر أسبوعين حتى تجف الطرق . ولو كان هناك فائدة من الذهاب .. ولكنك تعرف بنفسك أن الناس لا يكفون عن الحركة ليل نهار . ومع ذلك فلا فائدة .. لا فائدة على الإطلاق .

لم يقل فاسيلى أندريتش شيئا ، أعطاه منحة واتخذ جلسته فى العربة وانطلق . فقال سيمون مرتعدا فى البرد · أنظر هاهوذا يذهب

يعدو خلف الطبيب ! نعم يمضى ليبحث عن طبيب حقيقى . ليلحق بالرياح بين الحقول . ليمسك الشيطان من ذيله . عليه اللعنة ! يالغرابة الناس ! وليسامحنى الله . أنا الخاطىء المسكين ! »

اتجه إليه التترى ينظر إليه فى مزيج من المقت والاحتقار . يرتعد ويخلط بين الكلمات التترية والروسية السقيمة : هو طيب . طيب . وأنت ردىء ! ردىء ! هذا السيد روح طيب . طيب جدا وعظيم . وأنت حيوان . أنت شرير. هو حىّ يعيش وأنت ميت . صنع الله الإنسان من أجل أن يحيا .. من أجل أن يسعد ويأسف ويحزن وأنت لاتريد شيئا .. فأنت لاتعيش . أنت حجر ! الحجر لايريد شيئا وكذلك أنت ! والله لايحبك ولكنه يحب هذا السيد !

أخذوا كلهم يضحكون . وعقد التترى حاجبيه فى غضب جامح ولوح بذراعيه وتلفف بالخرق التى يرتديها . وذهب إلى موقدة النار على الشط . واتجه سيمون والنوتية إلى الكوخ فى بطء .

قال أحدهم بصوت أجش : « الدنيا برد » . وهو يتمطى على القش الذى يكسو الأرض الندية الطينية .

فأجاب الآخر : نعم . لا دفء هنا ، هذه حياة شاقة .

رقدوا جميعا . وهبت الريح فانفتح الباب وانساب الثلج إلى داخل الكوخ ولم يقدر واحد منهم أن يقوم ليقفل الباب . كان البرد لاذعا

ولكنهـم احـتملوا وران عليـهم الصـمت والجمـود . همـهم سـيمـون وهـو ينعس : أما أنا فسعيد . فليمنح الله كل الناس مثل هذه الحياة .

- أنت للشيطان نفسه . وحتى الشيطان لا يحتاج أن يأخذك .

وجاءتهم من الشط أصوات كنباح كلب .

- من هذا ؟ من هناك ؟

- إنه التترى يبكى

فأجاب سيمون وهو ينام : سوف يعتاد هذا .

وسرعان مانام كذلك سائر النوتية . وظل الباب مفتوحا .

المشروع القومى للترجمة

اللغة العليا	جون كوين	ت : أحمد درويش
الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت: محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
أثينة السوداء	مارتن برنال	ت: لطفى عبد الوهاب / فاروق القاضى / حسين الشيخ / منيرة كروان / عبد الوهاب علوب
مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت : نعيم عطية
قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت: يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
الرواية العربية	روجر ألن	ت : د. حصة إبراهيم المنيف

الأسطورة والحداثة	پول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت
نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
نقد الحداثة	آلن تورين	ت : أنور مغيث
الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود ماجد
عالم ماك	بنجامين باربر	ت : أحمد محمود
اللهب المزدوج	أوكتافيو پاث	ت : المهدى أخريف
بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	ت : مارلين تادرس
التراث المغدور	روبرت ج دنيا – جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد على
تاريخ النقد الأدبى الحديث (١)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتى
الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستى	ت : محمد أبو العطا
العلاج النفسى التدعيمى	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش
الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت : مرسى سعد الدين
المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحى
ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	ت : على يوسف على
الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود على مكى
الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى
مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبرى محمد عبد الغنى
موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور – سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى
لذّة النّص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
تاريخ النقد الأدبى الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت : رمسيس عوض .
فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدى أخريف
نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد

السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود
السياسي العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلى
نقد استجابة القارئ	چين . ب . توميكنز	ت : حسن ناظم وعلى حاكم
صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوڤا	ت : حسن بيومى
فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش
چاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
تاريخ النقد الأدبى الحديث ج ٣	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	ت : سعيد الغانمى وناصر حلاوى
بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم الغمرى
الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوى
مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	ت : محمود السيد على
مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالى
موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	ت : عبد الرازق بركات
طول الليل	جمال مير صادقى	ت : أحمد فتحى يوسف شتا
نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العنانى
الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	ت : أحمد زايد ومحمد محيى الدين
وسم السيف	ميجل دى ثربانتس	ت : محمد إبراهيم مبروك
المسرح التجريبى بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت : محمد هناء عبد الفتاح
أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر	كارلوس ميجل	ت : نادية جمال الدين
محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	ت : عبد الوهاب علوب
الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوى
مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو	ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف
ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت : إدوار الخراط

(تحت الطبع)

المختار من نقد ت . س . إليوت
الهم الإنساني والابتزاز الصهيوني
تاريخ السينما العالمية
صورة الفدائي في الشعر الأمريكي المعاصر
أوبرا ماهوجوني
عالم التليفزيون بين الجمال والعنف
حروب المياه
الأدب الأندلسي
الأدب المقارن
راية التمرد
السياسة والتسامح
مساءلة العولمة
ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي
الفجر الكاذب
الشعر الأمريكي المعاصر
مدخل إلى النص الجامع
نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان
الشرق يصعد ثانية
الجانب الديني للفلسفة
الولاية
ثقافة العولمة
الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية
حيث تلتقي الأنهار
النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس
المدارس الجمالية الكبرى
التحليل الموسيقي
الإسكندرية : تاريخ ودليل

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٥٠٦١ / ١٩٩٨

الترقيم الدولى (I. S. B. N. 977 - 305 - 083 - 1)

هذه طائفة من القصص بأقلام قصّاصين مشهورين أو مغمورين على السواء، من الهند إلى رومانيا، من الجزائر إلى روسيا، من تركيا إلى يوغوسلافيا، قصص أحببتها فاخترتُها فترجمتُها عبر سنوات طوال، قصص مرهفة أو جافية عنيفة أو رقيقة المدخل إلى النفس.

هذه المختارات تشير إلى مقدرة الفن القصصى على التنوّع، والطواعية، والقابلية للتشكيل- وإعادة التشكيل- بلا نهاية، والانسياب أو الانصهار - أو التصاهُر على الأقل- مع أجناس أدبية وغير أدبية أخرى؛ إذ تتراوح من الإسهاب إلى الإيجاز، من التحليق الشعرىّ إلى الإيماء الواقعىّ، من الحداثىّ إلى «التقليدىّ»، ومن الحكى الشعبىّ إلى التحليل وتقصّى دخائل الروح الإنسانيّة والولوج إلى أغوارها